أخلاقنا العائلية

الدكتور مصطفى السباعي

دار الوراق

دار النيربين

بسم الله الرحمن الرحيم

حُقُوقُ الطَّبْعِ مَحْفُوظَةٌ

الطَّبْعَةُ الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

دار الوراق

دار النيرين

للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت : تلفاكس 664499 (9611 +) ـ ص . ب : 6380 / 14

الرياض : هاتف 4162527 (9661 +) ـ ص . ب : 250641 الرمز 11391

دمشق : هاتف 2230914 (96311 +) ـ ص . ب : 7603

E.mail : warrak@zajil.net

www.daralwarrak.com

المحتويات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٧
مشكلاتنا العائلية وأسبابها	٩
بناتنا في البيوت	٢٤
أزواجنا في البيوت	٣٩
زوجاتنا في البيوت	٥٣
أولادنا في البيوت	٦٦
آباؤنا في البيوت	٨٠

❀ ❀ ❀

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، محمد صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

هذه كلمات طيبة خرجت من فم الدكتور الراحل الشيخ مصطفى السباعي رحمه الله تعالى، وهي بحق جديرة بالقراءة والاهتمام.

فهي تسلط الضوء وبأسلوب سلس هين لين على بعض ما يعتري الأسرة والعائلة ـ على اختلاف مسؤوليات أفرادها ـ من أسباب ضعف وتفكك وتصدع.

فالأسرة هي النواة الأولى والمجتمع الأول

للإنسان مهما علا شأنه أو صغر، ففي هذا المجتمع الأول يكون انخراطه وتأثره قبل خوضه في الحياة الاجتماعية الكبرى.

فلذا فإن مقومات الأخلاق والسلوك للإنسانية توضع لبناتها الأولى مع اللبن الذي يتجرعه الطفل من أمه.

وعليه فإن مسؤولية الأسرة بأفرادها جميعاً مسؤولية كبرى في صلاح الفرد والمجتمع والأمة.

هذه الكلمات من المؤلف رحمه الله تصب في خانة الكشف عن بعض ما يعتري ذلك البنيان من خلل وتصدع مع تقديم المقومات لرأب ذلك الصدع وإصلاح ذلك الخلل، وقد عرضها رحمه الله بأسلوبه الشيق العذب منتهلها من كتاب الله وسنّة الحبيب المعلِّم المربي سيدنا محمد ﷺ.

❀ ❀ ❀

مشكلاتنا العائلية وأسبابها

ما أعتقد أن في الحياة سعادة تفوق سعادة الإنسان في بيته، ولا شقاء يعدل شقاءه مع أهله . . فمن كان في بيته سعيداً عاش مع الناس سعيداً، ومن كان في بيته منغصاً يفقد الهدوء النفسي عاش مع الناس سيىء الخلق متبرماً بهم، ضيق الصدر في معاملتهم . . وإذا كان الغربيون يقولون في أعقاب كل جريمة: فتش عن المرأة، فإن من الواجب أن نقول في أعقاب كل مشكلة اجتماعية وكل انحراف خلقي: فتش عن البيت.

والمشكلات التي تنشأ عن اضطراب الحياة الزوجية كثيرة، وكم أدت إلى جرائم اجتماعية كبرى . . وليس اضطراب الحياة الزوجية مقصوراً على بيئة معينة، ففي الأوساط المتعلمة قد تنشأ المشاكل كما تنشأ في الأوساط الجاهلة، وفي الأوساط الغنية المترفة قد تفقد السعادة الزوجية كما تفقد في الأوساط الفقيرة . . وفي

البيئات المتدينة المحافظة قد تقع الخصومات العائلية كما تقع في البيئات المتحللة.. وهو في الغرب كما في الشرق، وعند المتمدنين كما عند المتأخرين.. إنها مشكلة المجتمعات الإنسانية في كل عصر.. غير أن هذه المشكلة تبدو واضحة الأثر كثيرة الظهور في البيئات التي ضعف فيها وازع الدين والخلق، وأقصد بالدين، الدين النيِّر العميق في النفس، لا الدين السطحي الذي يعتمد على المظاهر والشارات، فكثيراً ما رأينا بعض المتدينين من أسوأ الناس معاملة لأزواجهم؛ لأن الدين لم يكن عندهم ضابطاً مسيطراً على الأهواء والنزعات، وإنما هو طقوس باهتة لا تسمو بروح، ولا تزكي نفساً.. والأسباب التي تنشأ عنها المشاكل العائلية كثيرة متعددة سنقتصر على أكثرها انتشاراً ووقوعاً.

فمن ذلك تحكيم العاطفة أو المصلحة المادية عند اختيار الزوج أو الزوجة، فكثيراً ما ينشأ الزواج عن حب عاطفي مشبوب لا يلبث أن يفتر بعد الزواج بأشهر قلائل، وما يلبث أن يكتشف الزوجان أن بينهما بوناً شاسعاً في الأخلاق أو المزاج أو الثقافة أو الميول.. وكثيراً ما ينشأ الزواج عن الإعجاب

بالجمال في الزوج أو الزوجة، يعجب الشاب بجمال فتاة، فيطلب إلى أهله أن يخطبوها له، ثم سرعان ما ينكشف له الجمال الجسمي عن قبح نفسي ودمامة خلقية.

وقد تعجب الفتاة بشاب وسيم الطلعة فتسرع إلى إجابة طلبه، ثم يشتد بها الأسى حين تكتشف فيه خلقاً سيئاً أو طبعاً دنيئاً.. وكثيراً ما ينشأ الزواج عن طمع في الثروة.. فهذا خاطب ذو وظيفة أو دخل كبير أو غني كبير.. أولى في نظرنا من خاطب ليست له ثروة واسعة أو ليس له أب غني.. وكثيراً ما يكون مع الغنى المفرط الفساد المتلف، وأقبح ما يكون الزواج في مثل هذه الحالة أن تزف الفتاة التي لم تبلغ العشرين إلى الشيخ العجوز الذي جاوز الستين.. وما يحدو بأهل الفتاة إلى تزويج فتاتهم منه إلا الطمع في ثروته الكبيرة أو أراضيه الواسعة.. وما يدري هؤلاء أنهم جنوا على فتاتهم جناية أبشع من القتل، فالقتيل يذوق مرارة الموت لحظات ثم يرتاح.. وهذه الفتاة المسكينة تذوق مرارة الشقاء كل لحظة.. إن الله شرع الزواج لسكن النفس، فكيف تسكن نفس الفتاة في

أول تفتحها للحياة إلى نفس ودّعت الحياة واستقبلت الموت؟ ولقد أحسن قانوننا الجديد للأحوال الشخصية حين أعطى القاضي الحق في أن لا يوافق على الزواج إذا كان الخاطبان غير متناسبين سناً.

ومن أسباب المشاكل العائلية: سوء فهم كل من الزوجين لطباع الآخر.. فقد يكون الزوج حاد المزاج شديد الإحساس يتأثر لأقل الأشياء التي يراها مخالفة لذوقه، فلا تراعي زوجه فيه هذا.. فتضحك وهو غضبان، وتعرض عنه وهو يوجه إليها الخطاب، ويتكلم الكلمة فتجيبه عليها بعشر كلمات.. فما هي إلا أن تثور العاصفة وينفجر البركان.. وقد تعجب الزوجة باللون الأحمر من الثياب فيجبرها الزوج على أن تلبس الأبيض مثلاً، وقد تحب شرب اللبن وهو لا يميل إليه، فيجبرها على أن تترك ما تميل إليه إلى ما يميل هو إليه.. فما تلبث الزوجة أن تشعر بالانقباض، ثم ينقلب الانقباض إلى تبرم، ثم يؤدي التبرم إلى النزاع لأقل سبب.

ومن أسباب المشاكل العائلية عدم تقدير الزوجة لأعباء زوجها وواجباتها الاجتماعية، فقد يكون الزوج

سياسيّاً، من واجبه أن يجتمع إلى الناس ويستقبلهم.. وقد يكون عالماً أو أستاذاً، من واجبه أن يقرأ ويكتب، فتضيق زوجه بالاجتماعات العامة، وتتبرّم من قراءاته وكتاباته، بل تتبرم من كتبه وتتأفف منه حين تراه يدخل البيت وفي يده كتاب جديد.. ولقد كانت زوجة الإمام الزهري تتبرم منه حين تراه منكبّاً على كتبه وتقول له: «والله لهذه الكتب أشد علي من ثلاث ضرائر». ولئن كان من حق الزوجة أن يخصص لها وقتاً ليؤنسها ويأنس بها، فليس من حقها أن تنكر عليه تفرغه لواجبه الاجتماعي أو العلمي، أو أن تظهر السخط على عمل يرتاح إليه ضميره وتطمئن إليه نفسه.

ومن أسباب المشاكل الاجتماعية تدخل الزوج في الشؤون البيتية أكثر مما ينبغي، وكم من رجل فارغ من العمل يقف مع زوجته في المطبخ فيقول لها: الماء الذي وضعتيه قليل.. أكثري من الملح.. خففي النار.. حركي الطعام.. وهكذا تضيق زوجته بفضوله، فما تلبث يوماً بعد يوم أن تنفجر وتثور.. وإذا كان من حق الزوج أن يبدي رغبته في الطعام

الذي يأكله فليس من حقه أن ينصب نفسه طاهياً يعلِّم امرأته أصول الطهي كل يوم.

ومن أسباب المشاكل العائلية: عدم مراعاة الزوجة لأوضاع زوجها المالية.. فهي تريد أن تلبس كما تلبس صديقتها تلك، وتريد أن تستكثر من الزينة أو أثاث البيت كما استكثر فلان من أثاث بيته وزينته.. دون أن تلاحظ الفرق بين ثروة زوجها وزوج صديقتها أو جارتها.. وما أكثر المناسبات عندنا لشراء الثياب.. فكلما تزوج قريب للمرأة وجب أن تخيط لعرسه ثوباً جديداً تلبسه فيه، وكلما تغيرت الأزياء وجب أن تتغير الثياب.. وهكذا يرهق الزوج في ميزانيته، ويضطر إلى أحد أمرين: إما أن يستدين الزوج ويرهق نفسه نزولاً عند رغبة زوجته، وإما أن يتحمل الخصام والخلاف بينه وبينها ليحافظ على ميزانيته، وكرامته بين الناس.. وأنا لا أنكر أن بعض الأزواج يبخلون بالإنفاق على زوجاتهم مع القدرة.. ولست أتكلم في مثل هؤلاء، فقد أعطى الإسلام الحق للمرأة التي يمتنع زوجها عن الإنفاق عليها بما تحتاج إليه من ثياب وطعام يليق بها وهو قادر على

ذلك أن تأخذ من ماله بغير إذنه، فقد جاءت امرأة أبي سفيان إلى رسول الله ﷺ تشكو إليه زوجها وتقول له: إن أبا سفيان شحيح لا يعطيني ما يكفيني وأولادي، فقال لها ﷺ: «**خذي من مال زوجك ما يكفيك وولدك بالمعروف**»[1]. وهذا كما قلنا في النفقات الضرورية التي يمتنع عنها شحّاً وبخلاً.. أما إذا كان امتناعه عن الإنفاق فيما يكون سرفاً وتبذيراً، أو فيما فيه إرهاق له بما لا يحتمله، فليس من حق الزوجة أن تعرّضه وتعرِّض بيتها للفقر والضيق.

ومن أسباب المشاكل العائلية: سوء الظن.. فقد يُسيءُ الرجل بزوجته ظنّاً في أمانتها المالية، ويتهمها بأنها تسرق من جيبه بعض نقوده وهو نائم، فإذا عد بعض دراهمه يوماً فوجدها ناقصة بادر إلى اتهام زوجته قبل كل شيء من غير تحقيق ولا تثبّت، فينشب النزاع ويتعالى الصراخ، ثم ما يلبث الزوج أن يتذكر أنه كان قد اشترى شيئاً قبل قدومه للبيت، أو دفع ديناً أو أقرض إنساناً أو أعطى بعض أولاده نقوداً، وهذا أمر يقع كثيراً، وأنا لا أنكر أن بعض

(١) رواه الستة إلا الترمذي.

النساء يفعلنه بغير حق.. وقد سمعت أن إحدى المتصديات للوعظ والإرشاد وهي جاهلة بالدين، كانت تقول لمن يحضر حلقات درسها من النساء: إن المرأة إذا سرقت من جيب زوجها أو ابنها تبسمت الملائكة سروراً.. وهذا جهل بالدين وافتراء على الله، وتشجيع على ما يؤدي إلى النزاع والخصام بين الزوج والزوجة، وقد يسيء الرجل ظنّاً بزوجته في حشمتها أو مشيها في الطريق أو نظرها من النافذة، فيتهمها بما يسيء إلى كرامتها وسمعتها وهي بريئة محتشمة عفيفة، ولكن الشيطان يسوّل لبعض النفوس الجاهلة أن تشتد في الغيرة أكثر مما أمر الله.. وكثيراً ما وقعت جرائم قتل وطلاق من سوء ظن لا يلبث بعد التحقيق أن يتبين خطؤه.

ومن أكبر أسباب المشاكل العائلية سوء خلق الزوجة، فيثور أحدهما لأقل سبب ويغضب لأقل كلمة.. وإني لأعرف من اشترى مرة قطعة من القماش وأتى بها إلى بيته، وأفهم امرأته أنه اشتراها ليخيطها لنفسه، وجاء في اليوم التالي يسألها عن القماش فمازحته زوجته بأنها خاطتها لنفسها وهي لم

تفعل ذلك وإنما أرادت مداعبته، فما كان منه إلا أن فتح خزانتها وكانت حديثة عهد بالزواج منه وأخذ يلقي بثيابها الجديدة في بركة الماء حتى لم يبق لها ثوباً، ولم يكتفِ بذلك بل أخذ يفتش عن جواربها ليمزقها بالمقص، ودهشت المرأة وأسرعت فأخرجت له قطعة القماش كما هي وأرته أنها كانت تمازحه، فندم الأحمق ولكن بعد أن أتلف ماله ومال زوجته..

وكم ثارت في البيوت مشاكل من ضيق الصدر وسوء الخلق! وكم انهارت بيوت لحمق الزوج أو الزوجة يضيق أحدهما ذرعاً بكلمة قد تبدر من الآخر فلا يجد لها مخرجاً حسناً، ويخيل له سوء الخلق أن كرامته أهينت أبلغ الإهانة، وأنه لا يمكن أن يتحمل هذه الإهانة.. وأنا أشهد أن الأزواج أكثر تجنياً في ذلك من الزوجات، فالمرأة تتحمل من زوجها غالباً أكثر مما يتحمل زوجها منها لغروره وشعوره بسلطته وقوته.. اللهم إلا في حالات تكون فيها بعض الزوجات سليطة اللسان شرسة الخلق، فإن الزوج مهما كان حليماً لا بد من أن تخرجه عن حلمه وسماحته بلسانها الطويل ولفظها القبيح.. ويا ويل

من كانت زوجته أقوى منه جسماً وأطول منه لساناً.

هذه بعض أسباب مشاكلنا العائلية. . لم أسردها كلها وقد تركت منها ما نعرفه جميعاً كمشكلة الكنة والحماة. ومشكلة الزوجة والأخوات، فإنها تشكل ثمانين بالمائة من مشاكلنا العائلية. . وهذه الأسباب كلها كان من الحكمة أن نتداركها إذا تذكرنا الحقائق التالية:

الأولى: أننا ننظر إلى الحياة الزوجية بمنظار مادي فنحن نعتبر الزواج الموفق هو الذي توفر فيه الجمال أو الجاه أو الثروة، وهي مقاييس قد يكون معها السعادة ولكنها وحدها لا تعطي السعادة، ثم هي لا دوام لها، فالجمال يذبل، والجاه قد يزول، والثروة قد تتبدد، وما بني على ما يتغير ويتبدل فهو معرض للزوال، والخير أن ننظر إلى الحياة الزوجية بمنظار معنوي روحي قبل كل شيء، أي أن نجعل أساس الاختيار في الزوج أو الزوجة ما يبقي فيهما لا ما يتبدل، وما يقوى مع الزمن لا ما يضعف ويفنى. . ذلك هو الدين والخلق. . إن المتدين عن عقيدة واقتناع وتربية لن يكون في البيت ـ زوجاً أو زوجة ـ إلا ريحانة مملوءة بالحب والسلام. . وإن صاحب

الخلق الكريم الأصيل لن يكون في البيت ـ أمّاً أو أباً ـ إلا دوحة مثمرة تجني منها الأسرة أطيب الثمار: أبناء صالحين وعملاً اجتماعيّاً كريماً.. وصدق رسول الله ﷺ حين وضع لنا أسس الحياة الزوجية التي تدوم سعادتها وتثمر أزهارها بقوله: «**لا تزوّجوا النساء لحسنهن فعسى حسنهن أن يرديهن، ولا تزوجوهن لأموالهن فعسى أموالهن أن تطغيهن.. ولكن تزوجوهن على الدين**»[1]. وبقوله أيضاً: «**إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه إلا تفعلوه تكن فتنة وفساد كبير**»[2].

الثانية: أننا كشعب متدين يأمره دينه بحسن الخلق يجب أن نكون من أحسن الناس أخلاقاً مع أزواجنا وزوجاتنا.. يقول الله تبارك وتعالى مخاطباً الرجال: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[3]. ويقول

---

(١) رواه ابن ماجه.

(٢) رواه الترمذي، ورواه الديلمي في الفردوس بلفظ: «**إذا جاء الأكفاء فأنكحوهن**».

(٣) سورة النساء، الآية: ١٨.

رسول الله ﷺ: **«خيركم خيركم لأهله»**[١]. ولست أرى أقبح من رجل يتزين للناس ببشاشة الوجه وحلاوة اللسان حتى إذا انقلب إلى أهله بدا فظّاً غليظاً عابس الوجه ثقيل الظل.. وكذلك المرأة تتزين للزائرات وتحسن لهن الكلام واللقاء، ثم تكون مع زوجها سيئة اللقاء والكلام والمعاملة.. وكما تثير الكلمة السيئة عواصف من الشر توجد الكلمة الطيبة أجواء من الحب والسعادة.

الثالثة: أننا ننسى التكافل العائلي بين الزوج والزوجة.. فالزواج قد ربط مصير الزوجين في غالب الأمر حتى نهاية الحياة، فما يصيب أحدهما من ضيق أو عسر أو مهانة يصيب الآخر.. فإذا لم يذكر الزوج إلا نفسه، ولم تذكر الزوجة إلا نفسها، فقد أذهبا هذا الرباط المقدس وجعلا نفسيهما كشريكين همُّ كل واحد منهما أن يربح على حساب الآخر! وإنه لشقاء ما بعده شقاء.. لقد كان من عادة نساء السلف إذا خرج الرجل من

(١) رواه ابن ماجه والحاكم.

منزله أن تقول له زوجه أو بنته: إياك وكسب الحرام، فإنَّا نصبر على الجوع والضر ولا نصبر على النار.. ومما أخرجه البخاري عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: «تزوجني الزبير وما له في الأرض من مال ولا شيء غير فرسه وناضحه (أي بعيره)، فكنت أعلف فرسه وأسوسه وأدق النوى لبعيره وأستقي الماء وأخرز غربه (أي أضبط دلوه) وأعجن، وكنت أنقل النوى على رأسي من ثلثي فرسخ (أي مسافة ساعة تقريباً) حتى أرسل إلي أبو بكر بخادم يكفيني سياسة الفرس فكأنما أعتقني.

وكان نساء السلف الصالح يشجعن أزواجهن على الجهاد، ويصحبن معهن أولادهن في المعارك فيجد الأزواج والأبناء فيهن خير معين على القيام بالواجب والنشاط فيه..

لما نزل قول الله تبارك وتعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ قال أبو الدحداح الأنصاري: يا رسول الله وإن الله ليريد منا أن نقرضه؟ قال: «نعم يا أبا الدحداح» قال:

أرني يدك يا رسول الله، فناوله الرسول ﷺ يده، فقال له أبو الدحداح: أشهد يا رسول الله أني قد أقرضت ربي حائطي (أي بستاني) ـ وكان له بستان فيه ستمائة نخلة وفي البستان زوجته أم الدحداح وأولاده يسكنونه ـ ثم جاء إلى البستان فنادى زوجته: يا أم الدحداح، قالت: لبيك، قال: اخرجي أنت وأولادك فقد أقرضت الله بستاني.. فما أعولت زوجته ولا عنفته ولا صرخت في وجهه ولكن استبشرت وقالت: ربح بيعك يا أبا الدحداح، ثم نقلت متاعها وصبيانها.. هكذا يعيش الأزواج سعداء حين يعين كل منهما الآخر على الحياة وواجباتها.

والحقيقة الأخيرة التي يجب أن نتذكرها أزواجاً وزوجات.. أن الحياة والصحة والسعادة أثمن من أن تضيع في الخصام والنزاع.. وأن ما ينفقه أحدنا من صحته ووقته وراحته وهدوء أعصابه حين يثور في البيت ويغضب، هو أغلى وأثمن من المال الذي يغضب له، أو الكرامة التي يثور لها، أو الخلل الذي يريد أن يصلحه.. وخصوصاً إذا كان في البيت أولاد صغار يتأثرون بما يشاهدون من

خلق الأب أو الأم، وينشأون على ما ينشأ عليه الآباء والأمهات من خلق حسن أو ذميم.

أيها الأزواج.. أيها الزوجات!

إن السعادة في الحياة هي كل ما في الحياة، فالتمسوا أسباب السعادة في أنفسكم وفي بيوتكم قبل أن تلتمسوها في الأسواق أو الشوارع أو المدارس أو المنتديات.

❀ ❀ ❀

بناتنا في البيوت

تلقيت رسالة من فتاة في دمشق تقص علي قصتها مع بعض إخوتها في البيت، فهي على ما يشملها أبوها من رعاية وحنان، وعلى ما تلقاه من أخويها الكبيرين من حسن معاملة، يعاملها إخوتها الآخرون بالقسوة والغلظة، يمتهنونها امتهان الخادم، وينتهرونها انتهار السيد لعبده المذنب، ويا ويلها إن أراد أحدهم تناول الغداء فتأخرت في تحضير المائدة، أو قدّمت له ما لا يستلذه من أنواع الطعام، هنالك ينفجر كالبركان، ويغمرها بالشتائم والسباب، وقد يحطم الأطباق، ويكسر أبواب الغرفة، ويمزق ما يلقاه في طريقه من ثياب وأثاث، ثم يخرج ساخطاً حانقاً ويستمر في هجرها أياماً أو شهوراً، هذا وهو يبدو لأصدقائه ولمعارفه من ألطف الناس عشرة وأكثرهم أدباً وأرقهم شمائل وخلقاً.. ثم تقول الفتاة في ختام

رسالتها: هل لك يا سيدي الأستاذ أن تُفْهِم مثل هؤلاء الأهل أننا بشر لنا عواطفنا وإحساساتنا، وأننا نتأثر بالكلمة الطيبة كما ننفعل للكلمة القاسية.. وأننا لسنا خادمات ولا أجيرات بل بشر لنا كرامتنا في الحياة.

ومنذ يومين ألقت فتاة في ريعان الصبا بنفسها تحت عجلات القطار فمزقها أشلاء متناثرة! وقيل في أسباب ذلك: إنها أرادت أن تتخلص من شقاء فرضه عليها أهلها حين أجبروها على الزواج بمن تكره.

وفي الحق أن ما تلقاه تلك الفتاة من قسوة إخوتها، وما لقيته المنتحرة من ظلم أهلها يقع كثيراً في بيوتنا؛ فنحن ـ في الكثير الغالب وخاصة في الأوساط الجاهلة أو الفقيرة ـ لا نزال نعامل بناتنا في البيوت معاملة القسوة والإهمال والامتهان.. تُقذف البنت من أرحام الأمهات إلى الحياة، فنستقبلها بالتجهم والعبوس، وإذا كانت ثالثة إخوتها أو رابعتهن، كانت ولادتها مصيبة يجزع لها قلب الأم؛ إذ هي تخشى ألم الأب واستياءه! ولقد لقيت ذات ليلة امرأة تبكي ساعة ولادة ابنتها فسألتها عن سر

البكاء وهي في ساعة فرح وسرور! فقالت: هذه هي المولودة الرابعة لابنتي، وأخشى أن يكرهها زوجها فيطلقها! وإذا نشأت الطفلة في البيت كانت أول ما تسمع كلمات الدعاء عليها بالموت ونحن نمازحها ونداعبها، فإذا طلبت شيئاً وألحّت في طلبه، ازدريناها وأفهمناها أنها أرخص من أن تعطى ما تطلب، فإذا اختصمت مع أخيها الصبي فضربته، ضربناها وصرخنا في وجهها وأرينا أخاها كيف نبالغ في الانتصار له عليها ليطمئن ويرضى.. فإذا كبرت عاملناها كالخادم، فعليها أن تقوم بطهي الطعام وغسيل الثياب وتنظيف المنزل، نأمرها كما نأمر الخادم المهين. ثم نضن عليها بكلمة تشجيع أو ثناء، وبابتسامة رضا أو حب.. فإذا بلغت سن الزواج نقطع الأمر دونها فنرد ونقبل ونأخذ ونعطي، ونشرط من الشروط ما نشاء، ونطلب من المهر ما نريد، لا يؤخذ لها رأي ولا يعرض عليها ما يراد لها.. فإذا رضي الأبوان بالزوج الخاطب، زفت إليه مكرهة أو ساخطة، ويا ويلها إن أبدت رأيها بالإعراض، أو لوّحت بالانتقاد، إنها حينئذ الفتاة الوقحة السيئة الأدب، التي لم يبقَ عندها خلق ولا يرتجى منها خير!.

إن النتيجة الطبيعية لهذه المعاملة سيئة بالغة الخطورة في المجتمع. فهي أولاً تغرس في نفس البنت شعوراً بالمهانة والضعف، حتى إذا أصبحت أمّاً لم يكن في استطاعتها أن تبث في نفوس أبنائها الشعور بالعزة والاعتداد بالكرامة، وكيف تفعل ذلك وهي تفقد في نفسها هذه المعاني ولا تجد لها ظلاً؟

وهي ثانياً تشعر الفتاة بأنها مظلومة مهضومة الحق، والشعور بالظلم مع الضعف والمهانة يولد الحقد والرغبة في الانتقام، وليس أسوأ خطراً ولا أشد انحداراً للمجتمع من أن تبنى بيوته على الحقد والميل إلى الثأر! وليس أمامها من تثأر منه وتنتقم إلا زوجها وأولادها، ومن ثم يبدأ النزاع، ويكون الخصام، ويفقد الحب، وتقع المشاكل التي لا تنتهي.

وهي ثالثاً تحمل الفتاة من حيث لا تشعر على الجموح في سلوكها، والخروج على آداب المجتمع وتقاليده، والتبرم بحياة البيت وعاداته.. فإن أحيطت بجو قاس ورزقت تديناً وحياءً من المجتمع، كبتت إحساسها وشعورها، وعاشت مريضة في جسمها أو نفسيتها.. وإن وجدت مجالاً ولو ضيقاً لنسيم الحرية

خارج بيتها، انفلتت ثم انتهت إلى أحد أمرين: إما العار وإما الانتحار..

هذا هو الأثر المحقق لسوء معاملة البنت في البيت، وبذلك يسهل علينا الإحاطة بأسباب هذه الجرائم الكثيرة التي أخذت تتزايد يوماً بعد يوم، وليس يجدينا أن نرفع أصواتنا بالشكوى، وأن يندد الكتّاب والخطباء والعلماء بهذا الوضع المؤلم، بل لا بد من أن نعالجه معالجة جذرية تقضي على المرض من أساسه.

ولا شك في أن الإسلام قد وضع النظام الصالح لإيجاد جيل من الفتيات، يبنين المجتمع ولا يهدمنه، ويؤسسن الأسرة ولا يهربن منها، وينشرن الخير والحب، ولا يتمادين في الشر والبغض.

لقد وضع الإسلام أساسه التربوي الصالح للبنات، على إنكار عادة التشاؤم بولادتهن كما كان يفعل عرب الجاهلية وكما نفعل اليوم، فلِمَ نتشاءم من الفتاة؟ ما ذنبها؟ ما ضررها إذا أحسنت تربيتها؟ ولماذا يكون الفتى دائماً خيراً منها؟.. ومتى كانت البنات كلهن شؤماً وكان الصبيان كلّهم خيراً؟ والبنت إذا ولدت

ماذا يرد من المصيبة بها ـ لو كانت مصيبة ـ الجزع منها أو إظهار الامتهان لها؟ إن التشاؤم سفه وحمق ومعاندة للّه في خلقه من حيث لا يملك أقوى إنسان أن يرد قضاء الله في ولادة البنات ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ۝٥٩﴾[1].

ومتى كان الأمر كذلك كان السبيل الصحيح ـ في نظر الإسلام ـ أن تستقبل البنت حين الولادة بالبشر، وأن تشعر الزوجة من زوجها أنها لم تأت بأمر ينفر منه، وأن يشعرها الزوج بفرحه بولادتها وسلامتها، حتى تنتقل الطمأنينة من نفس الأم إلى نفس البنت، وتقبل الأم على فتاتها حانية رفيقة محبة.. فإذا درجت البنت على الأرض، وبدأت تفهم ما حولها، شعرت بجو من الحب والكرامة تزداد له فهماً كلما تقدمت بها الحياة.. فليداعبها الأب، ولتضمها الأم، وليضحك لها الإخوة، فإن من شأن ذلك أن يحبب إليها الحياة والبيت والأسرة، وأن يشعرها بقيمتها

(١) سورة النحل، الآيتان: ٥٨، ٥٩.

ومكانتها في نفوس أبويها وإخوتها.. أخرج البخاري عن أبي قتادة قال: بينا نحن على باب رسول الله ﷺ جلوس إذ خرج علينا رسول الله ﷺ يحمل أمامة بنت أبي العاص بن الربيع، وأمها زينب بنت رسول الله ﷺ وهي صبية فصلى وهي على عاتقه، يضعها إذا ركع ويعيدها على عاتقه إذا قام، حتى قضى صلاته.

هكذا ينبغي أن يكون الأب مع البنت حتى في العبادة بين يدي الله عز وجل، وكانت فاطمة بنت الرسول إذا دخلت على أبيها رحب بها وقام إليها فأخذ بيدها فقبلها وأجلسها في مجلسه[1].

ومن إكرامها أن لا تشعرها بتفضيل أخيها الصبي عليها، بل استحب الإسلام أن تفضلها على أخيها في الهدايا، ليزول من نفسها كل معنى من معاني الشعور بالغبن أو الضعف أمام أخيها.. يقول عليه السلام: **«من خرج إلى سوق من أسواق المسلمين فاشترى شيئاً فحمله إلى بيته فخص به الإناث دون الذكور**

(١) رواه أبو داود والحاكم والبخاري في الأدب المفرد.

نظر الله إليه، ومن نظر الله إليه لم يعذبه»[١].

أما العناية بتأديبها وتعليمها: فلقد حثّ عليه السلام بما لا مزيد عليه حين قال عليه السلام: «**من كانت له ثلاث بنات يؤدبهن ويكفيهن ويرحمهن فقد وجبت له الجنة**». قيل: يا رسول الله وإن كانت له بنتان؟ قال: «**وإن كانت له بنتان**». قيل: وإن كانت له بنت واحدة؟ قال: «**وإن كانت له بنت واحدة..**»[٢]. وهو في كل ذلك ينفق عليها برضى وطيب نفس، لا يبخل عليها بما تحتاج إليه، ولا يمن عليها بما ينفق.

حدّثت عائشة أم المؤمنين قالت: جاءت امرأة معها ابنتان فلم أجد ما أعطيها غير تمرة واحدة فأعطيتها فقسمتها بين ابنتيها ثم قامت فخرجت، فدخل الرسول بعد ذلك فحدثته فقال: «**من ابتلي من هذه البنات بشيء فأحسن إليهن كنّ له ستراً من النار..**»[٣].

ويذهب الإسلام بعد ذلك إلى كراهة الإساءة إليها

---

(١) رواه الخرائطي.
(٢) رواه أحمد والحاكم والطبراني وأبو داود بألفاظ متقاربة.
(٣) رواه البخاري ومسلم.

وضربها وإساءة معاملتها.. كان لعبدالله بن رواحة جارية تتعاهد غنمه فعدا ذئب عليها فأكل واحدة منها، فضربها عبدالله على وجهها ثم ندم، فأخبر الرسول بما فعل، فغضب الرسول غضباً شديداً حتى احمر وجهه وهاب أصحابه أن يكلموه وقال لعبدالله: **«ضربتَ وجه مؤمنة؟ وما عسى الصبية أن تفعل بالذئب؟ وما عسى الصبية أن تفعل بالذئب؟»** وما زال يكرر ذلك[(١)].

هكذا يحيط الإسلام الفتاة في البيت بجو من الحب والإكرام والصفح عن الإساءة والتعهد بالتربية والرعاية حتى إذا شارفت سن الزواج نهى أن يفتات الأب عليها في اختيار الزوج، وأمر بأن يؤخذ رأيها فيه، واعتبر سكوتها حياء دليل الرضا.. **«وإذنها صماتها»**[(٢)] أي سكوتها.. ومذهب أبي حنيفة أن البنت البالغة العاقلة لا ينفذ زواج أبيها لها إلا إذا رضيت.. قالت الخنساء بنت خذام: إن أبي زوّجني من ابن أخته وأنا لذلك كارهة، فشكوت ذلك إلى

---

(١) جامع مسانيد أبي حنيفة: ٢ ـ ١٦٢.

(٢) رواه مسلم وأبو داود والنسائي.

النبي ﷺ فقال لي: **«أجيزي ما صنع أبوك»**، فقلت: ما لي رغبة فيما صنع أبي، فقال: **«اذهبي فلا نكاح له، انكحي من شئت..»**، فقلت: قد أجزت ما صنع أبي، ولكني أردت أن يعلم الناس أن ليس للآباء من أمور بناتهم شيء، فلم ينكر عليها الرسول مقالتها[1].

وكانت بريرة جارية لعتبة بن أبي لهب، فزوّجها عبداً ما كانت لترضاه لو كان أمرها إليها، وشكت أمرها إلى عائشة فاشترتها وأعتقتها، وقال لها الرسول ﷺ: **«ملكت نفسك فاختاري** (أي أنت حرة) **وقد بنت من زوجك فاختاري من تشائين»**، فتركت زوجها وكان يحبها حبّاً جمّاً حتى كان يمشي خلفها ويبكي وهي تأباه، فقال النبي ﷺ: **«ألا تعجبون من شدة حبه لها وبغضها له؟»**، ثم قال: **«اتقي الله فإنه زوجك وأبو ولدك»**، فقالت: أتأمرني؟ فقال: **«لا، إنما أنا شافع..»**، فقالت: إذاً فلا حاجة لي إليه.

ولعل من أروع ما يؤثر في هذا الباب ـ باب إكراه الفتيات على الزواج بمن لا يحببن ـ ما وقع من عبدالله بن جعفر سيد الأسخياء في عصره..

---

(١) المبسوط ٥/٢.

أصابته ضائقة شديدة وله بنت طلبها الحجاج بن يوسف فزوجها عبدالله منه وهي كارهة وما أغراه بهذا الزواج إلا ما دفع الحجاج من مهر بلغ ألف ألف درهم (أي مليون درهم)، فلما زفت إليه بكت، فقال لها الحجاج: لِمَ تبكين؟ قالت: أبكي من شرف اتضع، ومن ضعة شرفت، تعني بذلك شرفها ونسبها إلى شرف الحجاج وسيرته، حتى إذا علم عبدالملك بن مروان بأمرها كتب إلى الحجاج بطلاقها، فقال لها الحجاج: إن أمير المؤمنين كتب إلي بطلاقك، فقالت: هو والله أبر من أبي الذي زوّجني منك.

هكذا يحول الإسلام دون عسف الآباء في التحكم بمصير بناتهن ومستقبلهن، ولقد ذهب بعض الأئمة إلى بطلان زواج الأب أو الجد لبنته الصغيرة أو ولده الصغير. وهذا ما ذهب إليه قانوننا الجديد للأحوال الشخصية، وجعل من حق القاضي أن يأذن في زواج الفتى إذا بلغ خمسة عشر عاماً والفتاة ثلاثة عشر عاماً، على أن يقترن ذلك بموافقة الأب أو الجد.. ومتى أتمت الفتاة السابعة

عشرة وأرادت الزواج طلب القاضي من وليها بيان رأيه خلال مدة يحددها له، فإذا لم يعترض أو كان اعتراضه غير جدير بالاعتبار، أذن القاضي بزواجها بشرط الكفاءة.. وبهذا يُصان مستقبل الفتاة من العبث، وتُصان كرامة العائلة من الأذى.. ولو أن هذه الفتاة التي انتحرت تحت عجلة القطار تخلصاً من زوجها الذي أراد أهلها أن يكرهوها عليه، رفعت أمرها إلى القضاء لأنصفها القاضي وحال بينها وبين الكارثة.

وبعد فنحن لا ننكر أن بعض الفتيات يسرفن في طلب الحرية اندفاعاً مع الهوى والعاطفة، وأن منهن من يخترن أزواجهن بتأثير حب جارف وغرام مشبوب، وكثيراً ما تعقب مثل هذا الزواج الحسرة والندم، ونحن لا ننكر أن القانون وحده لا يحمي الفتاة من عبث أبويها، فأية فتاة تجرؤ على أن تشكو أبويها إلى القضاء في مجتمع كمجتمعنا إلا أن تنتظر الموت يغتالها فجأة بسكين أو فأس تهوي على رأسها؟.

نعم لا ننكر هذا ولا ذاك، ومن أجل ذلك

نعتقد أن العلاج الوحيد لظلم الفتاة في بيتها وانحراف الفتاة في سيرتها، هو أن تنشأ الفتاة منذ الصغر على الدين والفضيلة، وأن يغرس ذلك في نفسها غرساً بالإقناع والتربية لا أن تحمل عليه حملاً بالإكراه والاضطهاد.

إن القسوة لا تربي في الفتاة حصانة ولا تزينها بفضيلة.. وهبك ضربت فتاتك في البيت أو أكرهتها على العبادة.. فمن الذي يضمن لك أن لا تنحرف حين تخرج.. إن كانت في المدرسة أو كانت في السوق أو كانت في الشارع؟.. ونحن نعلم فتيات يخرجن من بيوتهن أمام آبائهن وأمهاتهن بأكمل حشمة، حتى إذا ابتعدن عن البيت خَلَعْنَ لباسهن وبَدَوْنَ للأعين كأتم ما يكنَّ من زينة وفتنة وإغراء!.

إن السبيل أيها الناس لاستقامة فتياتكم وسعادتهن زوجات وأمهات.. أن يقتنعن ـ لا أنتم ـ بأن مستقبلهن ومستقبل الوطن بأيديهن.. وأن يشعرن في قرارة أنفسهن بأنهن مسؤولات أمام الله عن أعمالهن وسلوكهن. أما الضرب بالعصا والغلظة في القول

والإجبار على الزواج بمن تشاؤون لا بمن يشأنَ، فلن يكون من ورائه إلا العار أو الانتحار أو النار.

والسبيل إلى إقناع فتياتكم بهذا ليس العلم في المدرسة فحسب، ولا قراءة الكتب فحسب، فذلك قد يفيد وقد لا يفيد، ولكن السبيل المضمون إلى ذلك: أن تغرسوا في قلوبهن حب الله وخوفه والرغبة في ثوابه والرهبة من عذابه، وقلب المرأة أسرع إلى التأثر بالدين وتعاليمه من الرجل.. وهي أرق شعوراً وأكثر إحساساً وأقوى عاطفة وأعمق تديناً. ولقد جربت بنفسي أثر الدين في الفتيات والفتيان إذ كان الدرس الذي ألقيه على طالباتي في المدارس الثانوية فتسيل له عبراتهن، لا يعدو عند طلابي من أن يهز مشاعرهم هزاً رقيقاً.

وأنتن يا أخواتي الفتيات.. إذا شكوتن ظلم آبائكن وامتهان إخوانكن، فالجأن إلى الإسلام ينصفكن من الظلم والمهانة.. الجأنَ إلى دين آبائكن وإخوتكن، الجأنَ إلى قلوبهم، إلى ضمائرهم، الجأنَ إلى تذكيرهم بما فرض الله عليهم من رعايتكن وإكرامكن واحترامكن.. فإذا لم ينفعكن دينهم في رفع الظلامة

عنكن، فلن ينفعكن التمرد على المجتمع، ولا الانفلات وراء الحرية القاتلة.. لن تجنينَ من ذلك إلا الشقاء والحرمان والتشرد، ثم العار الذي ينتهي إلى النار، ونعوذ بالله من أمرين أحلاهما مر.

❀ ❀ ❀

أزواجنا في البيوت

وفيه بيان لحقوق الزوج على زوجته

من قدّر له أن يحيط بوضع الأسرة في مجتمعنا، وما تعانيه من مشكلات نفسية وخلقية واجتماعية، ويقف على ما يقدم إلى محاكمنا الشرعية والمذهبية والمليئة من دعاوى الخصومة الزوجية، أيقن أننا في أشد الحاجة إلى إصلاح اجتماعي يهتم قبل كل شيء بوضع العائلة والعلاقات بين أفرادها، فاضطراب الحياة الزوجية عامل كبير من عوامل اضطراب الأوضاع السياسية والاجتماعية العامة، ونعتقد أن هذه المشكلة ليست قائمة في مجتمعنا فحسب، بل هي في مجتمعات الشعوب كلها، كما نعتقد أيضاً أن هذه المشكلة ناشئة عن الغموض والفوضى في الحقوق والواجبات بين الزوج والزوجة، فلو استقام الأمر

بينهما على حب روحي كريم، وعلى حق واضح صريح يعرفه كل واحد منهما ويطبقه على نفسه، ويطالب به نفسه قبل أن يطالب به الآخر، لارتفع المستوى الاجتماعي في البيت إلى حيث تنعم الأسرة كلها بالأمن والسعادة والاستقرار.

ويوم كانت أمتنا تقود ركب الإنسانية إلى الخير، وتحمل مشعل الهداية إلى الشعوب، كانت في داخل بيوتها تنعم بما لا يعرف له التاريخ مثيلاً، من استقرار السعادة الزوجية، وشمول الطمأنينة والحب والتعاون لجميع أفرادها، ذلك أن الإسلام وضع لكل من الزوجة والزوج والآباء والأبناء، حدوداً واضحة يتميز فيها حق كل فئة عن حق الفئة الأخرى، وهي حقوق متكافئة منسجمة تؤدي إلى ملء القلوب بالحب، وملء البيوت بالنعيم، وملء المجتمع بالنسل الصالح الذي يبني ولا يهدم، ويسمو ولا ينحدر.

وهذه الحقوق أقامها الإسلام على دعامتين من العدل والحب، لا ينبع خير في الحياة إلا منهما، ولا يستقيم شأن في المجتمع بدونهما، والعدل هو دعامة التشريع الإسلامي ومدار فلسفته ونظامه، والحب هو

روح التربية الإسلامية وأساس رسالته، إن العدل والحب قام عليهما نظام الأسرة في الإسلام، وبهما استقام شأن العائلة المسلمة يوم كانت تقيم أحكامه وتلزم حدوده.. فما هو العدل في علاقة الزوج بزوجته؟ وكيف يكون الحب وتنمو بذوره في قلب الزوجين؟.

أما الحب: فذلك حين رغب الإسلام إلى كل من الرجل والمرأة أن يكون الباعث على اشتراكهما في الحياة الزوجية أمراً نفسياً يربط بين قلبيهما برباط وثيق من الحب والألفة ينمو مع الزمن، ولا تزيده الأيام إلا توثقاً واستمساكاً، ذلك هو إعجاب كل منهما بخلق صاحبه واستقامته ودينه، لا الرغبة في ماله فالمال يزول، ولا في جماله فالجمال يذبل، ولا في جاهه فالجاه ينهار.. إن الزواج في نظر الإسلام سكن نفسي واطمئنان روحي وتعاون قلبي على قطع مرحلة الحياة بما يقوي المجتمع ويمنحه خيراً، ومن هنا كان عقد الزواج عقداً تباركه يد الله وتشمله رعايته، وانظر ما أروع هذا التعبير عن غاية الزواج وحقيقة الرابطة بين الزوجين حين يقول الله تبارك

وتعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[1].

وانظر ما أبلغ هذا التشبيه الجميل في قوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾[2]. أي أن حاجة كل منهما للآخر كحاجة الإنسان إلى اللباس وملازمته له، فالرجل لولا المرأة لكان قبيحاً كقبح العاري تبدو سوأته للناس جميعاً، والمرأة لولا الرجل لكانت مزدراة تنبعث منها الشرور كما تنبعث من امرأة عارية لا حياء ولا حشمة.

وعلى الأساس القوي الرائع من الحب والإعجاب والغايات الروحية النبيلة، يبدأ الرجل والمرأة حياتهما الزوجية المشتركة، وفي ظل هذا الحب تحل كل المشاكل الناشئة بينهما فيما بعد. إنها ليست مشاكل تقوم بين غريبين لا رابط بينهما إلا المنفعة، بل بين حبيبين لا جامع بينهما إلا الوفاء.. وعلى هذا الأساس وضع الإسلام الحدود الفاصلة بين حق الزوج وحق المرأة، وسنرى كيف جعلها الإسلام

---

(١) سورة الروم، الآية: ٢١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٧.

حقوقاً يحتمها الحب والوفاء، قبل أن يحتمها العدل والقانون.

نحن الآن سنذكر طرفاً من حقوق الزوج على زوجته، وحقوق الزوجة على زوجها. فمن أحب من الأزواج والزوجات أن يمسك بيده قلماً يدوّن به هذه الحقوق ليرى مقدار ما يؤديه منها نحو الآخر، حتى إذا فاته شيء منها علم الباب الذي ينفتح منه الشر وتتكاثر به المشاكل.

لنبدأ بحقوق الزوج.. فأولها: طاعة الزوجة له بالمعروف، وهي طاعة تحتمها المصلحة المعنوية المشتركة بين كل شريكين.. إنها ليست طاعة العبد لسيده، ولا الذليل لمستعبده، وإنما هي طاعة الأخ الصغير للأخ الكبير، والزوجة غالباً ما تكون دون الرجل سناً، وهي طاعة المساهم الصغير للمساهم الأكبر، والزوجة لا تساهم في نفقات البيت كما يساهم في ذلك الزوج، وهي طاعة الأساتذة لمدير المعهد إذ كان لا بد له من مدير يضبط النظام ويحل المشاكل ويلزم التلاميذ حدود الأدب ويحول دون عدوان بعضهم على بعض، هذه هي الطاعة التي

يطلبها الإسلام من الزوجة لزوجها، وهي القوامة التي أشار إليها القرآن بقوله: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾[1]. وهي سهلة على نفس المرأة المفطورة على المسالمة والموادعة والرفق واللين.. ومن هنا كان أثرها كبيراً في استقامة الحياة الزوجية وسعادتها وحسن تربية الأولاد واستقامتهم في الحياة.. ومن هنا أيضاً كان أجرها عند الله كبيراً.

اجتمع النساء مرة في عهد رسول الله ﷺ وأرسلن إحداهن إلى الرسول لتقول له: يا رسول الله أنا وافدة النساء إليك.. هذا الجهاد كتبه الله على الرجال فإن يصيبوا أثيبوا وإن قتلوا كانوا أحياء عند ربهم يرزقون، ونحن معشر النساء نقوم عليهم فما لنا من ذلك الأجر؟ فأجابها عليه الصلاة والسلام بقوله: «**أبلغي من لقيت من النساء أن طاعة للزوج واعترافاً بحقه يعدل ذلك** (أي أجر المجاهدين في سبيل الله) **وقليل منكن من يفعله**»[2]. وصدق رسول الله! فطاعة المرأة لزوجها جهاد من نوع آخر غير جهاد السيف.. إنها

(١) سورة النساء، الآية: ٣٣.

(٢) رواه البزار والطبراني.

جهاد العاطفة والهوى والنفس، وإخضاع ذلك كله لمصلحة الأسرة وسعادة الأولاد.. ومن هذا القبيل قوله عليه الصلاة والسلام: **«إذا صلتْ المرأة خمسها، وصامت شهرها، وحفظت فرجها، وأطاعت زوجها، قيل لها: ادخلي الجنة من أي الأبواب شئت»**[1]. إنه لثواب عظيم ما أجدر زوجاتنا أن يحرصن عليه، جنة عرضها السموات والأرض تعطى ثمناً لطاعة الزوج وعبادة الله! ما أرخص الثمن وما أغلى المبيع!. ونحب أن ننبه هنا إلى أن الطاعة المطلوبة من المرأة لزوجها إنما هي في حدود الشريعة والمصلحة المحققة لها ولأولادها.. فمن أمرها زوجها بشرب المسكرات أو مرافقة الرجال أو ضرب الأبناء ضرب التلف.. لم تلزمها الطاعة بل تحرم عليها الطاعة في مثل هذه الأوامر، والقاعدة العامة قول الرسول ﷺ: **«لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»**[2].

ومن حقوق الزوج: أن تعنى الزوجة ببيتها وتحفظ للزوج ماله وأثاثه، وتوفر له راحته وهدوءه، وكلما

---

(١) رواه أحمد والطبراني.

(٢) رواه أحمد والحاكم.

كانت حريصة على البيت وأمواله لا تفرط فيه ولا تعطي منه شيئاً إلا بإذن الزوج كانت أجدر بثقته واطمئنانه، وقد أخبر رسول الله ﷺ أن من حق الزوج على زوجته أن لا تعطي شيئاً من بيته إلا بإذنه، فإن فعلت ذلك أي أعطت بغير إذنه، كان له الأجر وعليها الوزر، وفي رواية: أثمت ولم يتقبل منها، إن الزوجة في البيت راعية وقد قال عليه السلام: «**والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها**»[1].

ومن حق الزوج على زوجته: أن ترعى شعوره فتبتعد عما يؤذيه من قول أو فعل أو خلق، وأن تراعي ظروفه المالية ومكانته الاجتماعية، فلا تضيق ذرعاً بعمله خارج البيت ما دام عملاً شريفاً يكتسب منه، ولا تعرض عما تقتضيه مكانة زوجها الاجتماعية من حد لبعض تصرفاتها أو ملابسها أو أهوائها، فإنها شريكة الزوج في نجاحه الاجتماعي وحسن سمعته بين الناس، ينالها ما يناله في ذلك من خير أو شر أو ذم أو ثناء.. ومن ذلك: أن لا تكلفه من النفقات ما لا

(١) رواه البخاري ومسلم.

يطيق، قد تكون على حق فيما تطلب من نفقة، ولكن زوجها لا يستطيع أن يقدم لها ذلك إلا أن يسرق أو يستدين، فأية زوجة تلجيء زوجها إلى السرقة أو الاستدانة إلا أن تكون قاسية القلب لا تعيش مع زوجها بروحها ولا بقلبها، وإنما تعيش معه بجسدها ولذتها؟ ولقد كان من عادة نساء السلف رضوان الله عليهم أن تقول الزوجة أو البنت للرجل حين يخرج من البيت: اتق الله وإياك وكسب الحرام، فإنا نصبر على الجوع والضر ولا نصبر على النار، وقد اجتمع نساء النبي عليه الصلاة والسلام يوماً وتذاكرن ما هن عليه من خشونة العيش وضيق الحال وقلة الطعام، فأجمعن أن يطلبن من الرسول التوسعة عليهن. فاغتمّ الرسول ﷺ لذلك وأحزنه حزناً شديداً، وهجرهن شهراً لا يكلمهن حتى نزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾[1].

---

(١) سورة الأحزاب، الآيتان: ٢٨، ٢٩.

أمره الله أن يخير زوجاته بين الطلاق وبين الإقامة على ما هنّ عليه من عيش ضيق وحياة قاسية.. فبدأ بعائشة وتلا عليها الآيات وقال لها: **«ما أحب أن تتعجلي حتى تستأمري أبوَيك»** (أي تأخذي رأيهما في الإقامة مع الرسول أو الطلاق).. فبكت عائشة وقالت: أفيك أستأمر أبوَي يا رسول الله؟ بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة! ثم عرض على كل زوجة من زوجاته مثل ما عرض على عائشة فكان جواب كل واحدة ما أجابت به عائشة من تفضيلها الإقامة مع زوجها رسول الله ﷺ على الافتراق عنه[1]. هكذا كانت أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن.. وهكذا ينبغي أن تكون كل زوجة كريمة من زوجات المؤمنين.

ومن حقوق الزوج: أن توفر له الزوجة سكن النفس واطمئنانه في البيت، بنظافة جسمها ونظافة بيتها، وأن تتزين له حين يقدم بما يقربها إليه ويزيد حبه لها وشوقه إليها.. قالت أسماء بنت خارجة الفزاري لابنتها عند الزفاف: يا بنية، إنك خرجت من

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأصحاب السنن الأربعة.

العش الذي فيه درجت، فصرت إلى فراش لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه، فكوني له أرضاً يكن لك سماء، وكوني له مهاداً يكن لك عماداً، وكوني له أمة يكن لك عبداً، لا تلحفي به فيقلاك (أي لا تلحي عليه فيكرهك)، ولا تباعدي عنه فينساك، إن دنا منك فاقربي منه، وإن نأى فابعدي عنه، واحفظي أنفه وسمعه وعينه، فلا يشمنَّ منك إلا طيباً، ولا يسمع إلا حسناً، ولا ينظر إلا جميلاً.

وهكذا تكون المرأة الناجحة في امتلاك قلب زوجها . . لا كتلك التي تستقبل زوجها بثياب المطبخ شعثة الشعر رثة الهيئة ثم لا تتزين إلا حين تخرج لاستقبال أو تستعد لزيارة.

ومن حقوق الزوج: أن لا تخرج من بيته بغير إذنه، وأن لا تبدي زينتها للأجانب ليطمئن قلبه وتسكن نفسه، ومن وصايا رسول الله ﷺ أن لا تخرج الزوجة من بيته إلا بإذنه فإن فعلت (أي خرجت بغير إذن زوجها) لعنها الله وملائكة الغضب حتى تتوب أو ترجع، ومن أدب القرآن: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا

﴿يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾[1].

ومن حقوق الزوج: أن تترك له زوجته وقتاً يفرغ فيه لنفسه ولفكره، فإن كان عابداً تركت له وقتاً تطمئن فيه نفسه إلى عبادة الله بخشوع وحضور قلب. وإن كان عالماً تركت له وقتاً يقرأ فيه أو يكتب أو يؤلف أو يفكر... إن اللذة التي يجدها العابد في خلوته، والعالم في قراءته، والأديب في هدأته، لا تعدلها لذة في الحياة، وقد لا تشعر الزوجة بهذه اللذة فلا تفهم لها معنى، وقد تؤولها على معنى الكره والبعد عنها.. وهي في ذلك متجنية على زوجها ومتجنية على نفسها.. فإذا أبت إلا أن تعكر

---

(١) سورة النور، الآية: ٣١.

عليه صفو هدوئه ولذته الروحية والعلمية فقد أجبرته على أن يكره جو البيت، وأن يفر منه إلى مكان ينجو فيه من مضايقتها وإزعاجها، وقد تمتد النفرة من البيت فتصل إلى حد النفرة منها هي، فلا يطيق رؤيتها ولا يحب معاشرتها، وهنا تكون الكارثة على الزوج والزوجة والأولاد والبيت بأجمعه.

كان تولستوي (أكبر كتّاب الروس في عهد القياصرة) من أسعد الناس بحياته الزوجية في أول عهده بالزواج.. ثم كان من أشقى الناس بزوجته حتى لم يعد يطيق رؤيتها، ذلك أنه كان في أول حياته مترفاً منعماً، وكانت زوجته مترفة تحب رغد العيش ورفاهيته.. وعاشا معاً أمداً من الدهر كأسعد ما يكون الزوجان حبّاً وسعادة.. ثم تغيرت أفكار تولستوي وآراؤه في الحياة فمال إلى الزهد وصمم على أن يكرس حياته لإنقاذ البؤساء ونصرة الفقراء ومكافحة الظلم والطغيان، فألّف وكتب وخطب وعاشر الفلاحين في قراهم، وهجر حياة الترف والنعيم.. فلم تستطع زوجته أن تسايره في حياته الجديدة، بل لم تفهم عليه هذ الاتجاه الجديد، فما زالت به تنغص عليه عيشه وتضايقه في اتجاهه

الجديد حتى لقي الموت بسببها، أتدرون كيف كان ذلك؟.. إنها لم تسقه السم، ولم تخنقه في الفراش، ولم تطعنه بسكين، ولكنها ألجأته إلى هجر البيت فتسلل منه هارباً في ليلة باردة عاصفة ممطرة من ليالي الشتاء وخرج هائماً في ظلام الليل لا يدري إلى أين يتجه فأصيب بالتهاب رئوي لم يمهله أكثر من أحد عشر يوماً، حيث وجدت جثته ملقاة في فناء إحدى محطات السكك الحديدية، وقد كان مما أوصى به قبل موته أن لا يؤذن لزوجته برؤيته.

يا زوجاتنا الفضيلات! احرصن على سعادتكن بسعادة أزواجكن.. اجعلن من بيوتكن جنات يأوي إليها الأزواج حتى يجدوا فيها من قلوبكن وبشركن ونظافتكن وتعاونكن ما يحبب إليهم البيت على الهرب منه..! حذار يا زوجاتنا أن تقتلن علماءنا وأدباءنا ومفكرينا.. حذار أن تقتلن أزواجكن كما قتلت تولستوي زوجته الحمقاء..!

❀ ❀ ❀

زوجاتنا في البيوت

وفيه بيان لحقوق الزوجة على زوجها

لا بد أن أشير قبل البدء بالحديث إلى أننا كنا منذ عشرين سنة نشكو من قسوة الأزواج في معاملتهم لزوجاتهم معاملة تقوم على التحكم والاستبداد، وحرمان الزوجة من أبسط الحقوق التي منحتها الشرائع لها كإنسان ذي روح حي كريم، وإذا بنا اليوم - وقد أفلت القيد، وأفرط كثير من الأزواج في منح الحرية لزوجاتهم - إزاء طائفتين من الأزواج تأخذ كل منها أقصى الطرف الأيمن أو الأيسر، حتى ليجد الدارس لأخلاقنا الاجتماعية في الأسر أننا نعيش في مجتمع تتناقض مظاهر الحياة في داخل بيوته، من إفراط في حرمان الزوجة أبسط مبادىء الحرية التي شرعها الإسلام، إلى

إفراط في منح الزوجة فوق مبادىء الحرية المتزنة التي تسمح بها الشرائع والمبادىء الأخلاقية الكريمة، نحن بين فئتين: فئة متزمتة لا ترى للزوجة حقّاً في أن تتكلم أو تخرج من بيتها لنزهة أو سيارة، وفئة متحررة تطلق العنان لزوجاتها أن تختلط في المجتمعات التي تتحدث فيها الشهوات والأهواء والنزوات الخفيَّة بلغة أبلغ من لغة الكلام والعبارات.

والسعادة الزوجية والكرامة العائلية هي في الموقف الوسط بين الموقفين المتباينين.. وقبيح في دين الله من يغالي أو يقصر في أحكامه وتعاليمه على حد سواء، وها نحن نعرض الميزان القسط، والحدود الفاصلة بين الخير والشر، والحسن والقبح، في حقوق الزوجة على زوجها كما يقررها الإسلام دين الله الذي جاء لإسعاد الناس جميعاً.

١ ـ فمن أول حقوق الزوجة على زوجها: أن ينظر إليها على أنها سكن له تركن إليها نفسه، وتكمل في جوارها طمأنينته، وترتبط بالحياة الكريمة معها سعادته أو شقاوته؛ فهي ليست أداة للزينة ولا مطية

للشهوة، ولا غرضاً للنسل فحسب، بل إنها تكملة روحية للزوج يكون بدونها عارياً من الفضائل النفسية، فقيراً من بواعث الاستقرار والطمأنينة، وإلى هذا يشير القرآن الكريم حين يقول: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[1]. فأساس كل حق للزوجة على زوجها: أن يعاملها على أنها سكنه الروحي والنفسي، وعلى أنه قد ارتبط معها برباط عميق من المودة والرحمة هو أوثق من رابطة العقد القانوني الذي يلزمه نحوها بواجبات مالية أو حقوق مادية.. وحين ينظر الزوج إلى زوجته بهذا المنظار الجميل تزول من طريق الحياة الزوجية كل ما يشوبها من أشواك وعثرات، ويكون الافتراق فيها عن طريق الطلاق أو الهجر انتزاعاً للحياة من جسمي الزوج والزوجة على السواء.

في الحياة الزوجية التي لا يغيب فيها عن الزوج أبداً حاجته الروحية والنفسية والقلبية إلى زوجه؛ لا يقع الطلاق وإن أبيح، ولا يحصل التعدد وإن شرع،

(١) سورة الروم، الآية: ٢١.

ولا يقف الزوجان أمام القضاء وإن اختلفا في البيت، ولا يبغي أحدهما على الآخر في حقه ما دام هذا المعنى أساس الحقوق الزوجية كلها.

٢ ـ ومن واجبات الزوجة على زوجها: أن ينفق عليها بالمعروف، وهو في حدود المسكن الصالح الذي تصان فيه حرمة الزوجة وصحتها وكرامتها، واللباس الصالح الذي يصونها من الابتذال ويدفع عنها أذى الحر والبرد ويعتاده أمثالها من قريبات أو جارات.. والطعام الصالح الذي يغذي الجسم ويدفع المرض، ويأكله الناس عادة من غير سرف ولا تقتير، وكل ذلك في حدود الاستطاعة المالية للزوج: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[١]، ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾[٢]. أما أن تطلب الزوجة من النفقة أكثر مما تحتاج وفوق ما يطيق الزوج فهذا عنت وإرهاق يعرض العائلة للفقر والحرمان، لا تلجأ إليه زوجة عاقلة تريد أن تعيش في بيت الزوجية مكرمة هانئة مطمئنة، وأما أن يقصر الزوج عن الإنفاق على

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٣٣.

زوجته في الحدود التي تحتاجها كرامة الزوجية وسعادة الأسرة وهو قادر على ذلك، فهذا بخل يمقته الله وتكرهه المروءة، وسبب كبير من أسباب انحراف الزوجة وشقائها، وأشد من هذا مقتاً وكرهاً: أن يضن الزوج على زوجته بالنفقة الواجبة، بينما هو يجود بماله على رفاق السوء، وفي الليالي الحمراء، وعلى الموائد الخضراء، كما يقع كثيراً ممن لا خلاق لهم ولا مروءة.. ولقد رأينا بأعيننا بيوت أمثال هؤلاء الأزواج يخيم عليها البؤس، ويجثم فوق صدور أفرادها الشقاء. ومن ابتليت بمثل هذا الزوج فصبرت وعفت كانت في طليعة المجاهدين عند الله أجراً وثواباً، فحسبها أنها قد بذلت راحتها وقلبها في سبيل المحافظة على أبنائها وسمعتها وشرفها.. ولو كانت حدود الله تقام في المجتمع لنكل بهذا الزوج الآثم أشد النكال، وحسبه قول رسول الله ﷺ: **«كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت»**[١].

٣ ـ ومن واجبات الزوجة على زوجها: أن يعلمها واجباتها الدينية ويرشدها إلى ما تحتاج إلى

---

(١) رواه أبو داود والنسائي والحاكم.

معرفته من دين أو ثقافة أو خلق كريم.. ولئن كان ذلك حقّاً من حقوق الزوجة؛ فإنه في الواقع في مصلحة الزوج نفسه؛ فإن الزوجة التي تقف بين يدي الله خاشعة عابدة، تكون من أبر الزوجات بزوجها، وأحنى الأمهات على أولادها، وأسعد النساء في بيتها وأسرتها، ولذلك أباح الإسلام للمرأة التي يأبى زوجها أن يعلمها ما تحتاج إليه من أحكام الشريعة أن تخرج لتسأل أهل العلم بدين الله عن ذلك؛ فإنها هي وزوجها أحوج إلى هذا من سعيها وسعيه للطعام والشراب.. والمرأة شديدة التأثر بسلوك زوجها الديني، فإن رأت منه حرصاً على ستر أو عفة أو عبادة، بادرت إلى ذلك استجابة لعاطفتها، وإرضاء لزوجها، وإن رأت منه تشجيعاً على الانفلات من أحكام الدين وآداب الأسرة لم تجد بدّاً آخر الأمر من أن تستجيب له وتفعل ما يرضيه.. وكم رأينا زوجات خرجن من بيوت آبائهن إلى بيوت الزوجية عفيفات محتشمات عابدت، فما لبثن غير قليل حتى انحرفن عن ذلك كله بتأثير الزوج وانحرافه وجهالته.. وقد جعل الله وقاية الزوجة من النار أمانة في عنق الزوج حين

قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾[1].

فليتق الله الأزواج في دين زوجاتهن وأخلاقهن وحشمتهن، فإنهم مسؤولون عن ذلك بين يدي الله يوم لا ينفع المفرطين في مثل ذلك ندم ولا اعتذار.

٤ ـ ومن حقوق الزوجة: أن يغار الزوج عليها فلا يعرضها للشبهة، ولا يتساهل معها في كل ما يؤذي شرف الأسرة أو يعرضها لألسنة السوء، والتساهل في هذا قبيح لا يعد من مكارم الأخلاق في شيء ولا يعد من إكرام المرأة أو احترامها، لما يجره هذا التسامح من شقاء لها ولزوجها وأولادها، وما زال الناس في مختلف البيئات تتأثر سمعتهم وكرامتهم بسلوك الزوجات، فمن أغضى عن زوجته وهو يرى أو يسمع عنها ما يشين، فقد أخرج نفسه من زمرة الرجال الذين لهم حرمة في النفوس ومنزلة عند الله. وقد قال رسول الله ﷺ: **«أتعجبون من غيرة سعد ـ** أحد أصحابه **ـ أنا والله أغير منه والله أغيرُ مني»**[2]. وكانت أسماء بنت أبي بكر ـ

(١) سورة التحريم، الآية: ٦.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

رضي الله عنهما ـ زوجة للزبير بن العوام، وكان في بدء أمره فقيراً تنقُل النوى على رأسها من مسافة بعيدة لتعلف به بعيرها. فرآها رسول الله ﷺ ذات مرة وهي تحمل النوى فأحب أن يركبها معه على بعيره، فرغبت في ذلك، ولكنها تذكرت غيرة زوجها الزبير فأعرضت واعتذرت، ثم حدثت بذلك زوجها حين قدم البيت، فقال لها: والله لحملك النوى على رأسك أهون علي من ركوبك مع رسول الله ﷺ! قال ذلك لفرط غيرته، ولم ينكر عليه رسول الله ﷺ وهو المأمون الحبيب ذو الخلق العظيم.. والغيرة المحمودة هي ما كانت في محلها وفي حدود الاعتدال.. أما ما جاوز الحد وكان ظنّاً باطلًا لا أساس له إلا وسوسة الشيطان، فهو من الغيرة المكروهة التي تحدّث عنها رسول الله ﷺ بقوله: **«إن من الغيرة غيرة يبغضها الله عز وجل، وهي غيرة الرجل على أهله من غير ريبة»**[1]. وقال علي رضي الله عنه: لا تكثر الغيرة على أهلك ـ أي بغير داع إلى ذلك ـ فترمى امرأتك بالسوء من أجلك..

(١) رواه أبو داود والنسائي.

وكم رأينا من جنايات الغيرة المبغوضة على العائلة وسمعتها ما أدى إلى كثير من الجرائم:

٥ ـ ومن حق الزوجة على زوجها: أن ينبسط معها في البيت، فيهش للقائها، ويستمع إلى حديثها ويمازحها ويداعبها تطييباً لقلبها، وإيناساً لها في وحدتها، وإشعاراً لها بمكانتها من نفسه وقربها من قلبه.. وقد يظن بعض الجاهلين المتزمتين أن مداعبة الزوجة وممازحتها مما يتنافى مع الورع أو الوقار أو الهيبة التي يجب أن تستشعرها الزوجة نحو زوجها، وهذا خطأ فاحش، ودليل على غلظ الطبع وقسوة القلب وجهل الشريعة. كان رسول الله ﷺ وهو العابد الخاشع والقائد الحاكم من أفكه الناس مع زوجاته وأحسنهم خلقاً، كان يمزح معهن بما يدخل السرور إلى قلوبهن، ويقص لهن القصص ويستمع إلى قصصهن.. ومن المعروف في سيرته عليه السلام أنه كان يسابق عائشة رضي الله عنها، وكان يريها اللعب في باحة المسجد فيضع كفه على الباب ويمد يده وتضع وجهها على كتفه(١).

(١) رواه البخاري ومسلم.

ومن هنا قال عليه السلام: **«أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وألطفهم بأهله»**[1]. وكان مما يقول عمر وهو القوي الشديد الجاد في حكمه، المرهوب في سطوته: ينبغي للرجل أن يكون في أهله كالصبي - أي في الأنس والبشر والسهولة - فإذا كان في القوم وُجد رجلًا.

ومما يتصل بهذا حق الزوجة في الاستمتاع بالنزهات والرياضة الخلوية مع زوجها وأولادها.. فليس مما يبيحه الشرع أن يمتع الزوج نفسه كل يوم بالنزهة والرياضة في البساتين والحقول والرحلات المتتابعة طلباً للراحة واستجماماً من عناء الأعمال، ثم يضن على زوجته برحلة يصطحبها معه لتأخذ حقها من الراحة والاستجمام والنشاط.. متحرجاً من ذلك زاعماً أنه مما يتنافى مع الدين والحشمة. إن الزوجة إنسان لها حق الأنس مع زوجها في بعض نزهاته، وقد قال رسول الله ﷺ: **«إن لجسدك عليك حقاً وإن لزوجك عليك حقاً»**[2].

---

(١) رواه الترمذي والنسائي والحاكم.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

٦ ـ ومن حق الزوجة على زوجها: أن يحسن خلقه معها؛ فيكلمها برفق، ويتجاوز عن بعض الهفوات، ويقدم لها النصح بلين تبدو فيه المودة والرحمة، وقد قال ﷺ: «**إن أقربكم مني مجالس يوم القيامة: أحاسنكم أخلاقاً، الموطؤون أكنافاً، الذين يألفون ويؤلفون**»[(١)]. وإذا كان حسن الخلق مع الناس مرغوباً فيه وهو مقياس القرب من الله أو البعد منه، فكيف بحسن الخلق مع الزوجة وهي ألصق الناس بالزوج، وأشدهم حاجة إلى مودته وحسن معاملته؟.

تلك هي أهم حقوق الزوجة على زوجها، وهنالك حقوق مشتركة تطلب من كل من الزوج والزوجة معاً، فأولها: أن يتحمل كل منهما أذى صاحبه.. فالإنسان غير معصوم وليس من الناس من لا يخطىء.. فليتحمل الزوج من زوجته بعض الأذى ولتتحمل الزوجة من زوجها بعض القسوة.. وقد خاطب الله الأزواج وأمرهم باحتمال المكروه من زوجاتهم فقال: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِن

---

(١) رواه الترمذي.

كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾[1].

ومن الواجب أن يذكر الزوج أنه أقدر على تحمل الأذى من زوجته، فالمرأة عاطفية سريعة الانفعال كثيرة النسيان لجميل الزوج كما قال عنها رسول الله ﷺ: «**لو أحسنت إلى إحداهن الدهر كله ثم رأت منك شيئاً قالت: ما رأيت منك خيراً قط**»[2]. وهي طبيعة غالبة في النساء فلا تثر ثائرة الزوج لأقل خطيئة تبدو منها، ولا يسارع إلى الغضب حين تنكر زوجته في حالة الغضب فضله أو حسن معاملته، وقليل من ضبط الأعصاب حين تقع الخصومة يدفع عن الأسرة كثيراً من الشر والشقاء.

ومن الواجبات المشتركة: أن يشعر كل من الزوج والزوجة بالمسؤولية المشتركة نحو البيت والأسرة.. أي أن يشعرا أن عليهما معاً أن يسعدا أنفسهما وأولادهما متعاونين على بأساء الحياة وسرائها. فلا يصح أن لا يفكر الزوج في راحة الزوجة في البيت

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٨.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

وأعمالها وعنائها، وأن يكون همه فقط أن توفر له الراحة ولو على حسابها وحساب أولادها.. ولا يصح أن لا تفكّر المرأة في عمل زوجها وفي نفقات البيت حتى لا يكون همها إلا أن توفر لنفسها الراحة أو النفقات على حساب الزوج.

أيها الإخوة والأخوات أزواجاً وزوجات! إن التكافل العائلي بين الزوج والزوجة هو مقياس رقي الأخلاق الاجتماعية للأمة، هو الحجر الأساسي في بنائها المتماسك القوي.. ويوم يشعر الزوج والزوجة أنهما مسؤولان معاً أمام الله عن سعادة البيت والأولاد يومئذ تكون بيوتنا مصانع لتخريج الرجال، وجنات نتفيأ منها الظلال..

ولنذكر جميعاً قول رسول الله ﷺ: «**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها وهي مسؤولة عن رعيتها**»[(١)].

❀ ❀ ❀

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

أولادنا في البيوت

لعل من أهم مشكلاتنا الاجتماعية تربية أبنائنا وبناتنا في البيوت، فالولد قبل أن تربيه المدرسة والمجتمع يربيه البيت والأسرة، وهو مدين لأبويه في سلوكه الاجتماعي المستقيم، كما أن أبويه مسؤولان إلى حد كبير عن انحرافه الخلقي والاجتماعي، ومن معجزات الإسلام في علم التربية أنه سبق إلى تقرير هذه الحقيقة قبل أربعة عشر قرناً حين قال الرسول عليه الصلاة والسلام: **«كل مولود يولد على الفطرة وأبواه يهودانه أو يمجسانه»**[1]. وهذا صريح في أن اتجاه الولد الفكري والخلقي والاجتماعي متأثر أولاً وقبل كل شيء ببيئة الأبوين وأفكارهما وأخلاقهما وأسلوب تربيتهما..

---

(١) رواه الطبراني والبيهقي.

ومن المؤسف أن بيوتنا ليست على نمط واحد في التربية، وأن أمهاتنا وآباءنا ليسوا على مستوى متقارب معتدل في أساليب التوجيه، فمن بيوتنا ما ينشأ فيها الولد ـ ذكراً أو أنثى ـ على الجبن والخوف وضعف الشخصية واضطراب التفكير، ومنها ما ينشأ فيها الولد على الميوعة والفوضى والدلال الذي يفسد الفطرة ويقتل الاستقامة، ومن بيوتنا ما ينشأ فيها الولد جاهلاً وسخاً بعيداً عن الآداب الاجتماعية الراقية، ومنها ما ينشأ فيها الولد أرستقراطيّاً مترفاً بعيداً عن المشاركة الوجدانية للشعب في أفراحه وأحزانه.. ومن بيوتنا ما ينشأ فيها الولد متديناً يفهم الدين مليئاً بالأخطاء والخرافات، ومنها ما ينشأ فيها الولد متحرراً من العقيدة والدين تتحكم المدرسة في عقيدته كما يشاء المشرفون عليها من معلمين ومديرين.

وهكذا ينشأ جيلنا نشأة متباينة متباعدة ليس بين أفراده انسجام في التفكير أو الثقافة أو الخلق أو السلوك الاجتماعي العام.. وهذا هو سر ما نشاهده من انخفاض المستوى الفكري والأخلاقي في أوساط الشباب. حتى ليذهب بعضنا في التشاؤم إلى حد يقطع معه الأمل بكل خير يمكن أن تناله البلاد على

أيدي الجيل الحاضر.. ولسنا معهم في هذا التشاؤم؛ فعوامل الاضطراب والانحراف الذي يبدو على سلوك أولادنا في المجتمع، هي عوامل داخلية نملك بأيدينا التحكم فيها أكثر من أن تكون عوامل خارجية لا يد لنا في دفعها.

إننا نحن الآباء والأمهات نملك بأيدينا تقويم اعوجاج الجيل الحاضر والآتي من أولادنا، كما نملك أن يزداد الأمر سوءاً وفساداً.. ولعل دراسة التربية المنزلية وأساليبها الناجحة وعيوبها القائمة، هو من خير ما يتحدث به العلماء والمفكرون والمصلحون والكتّاب والخطباء إلى الناس، بل هي جديرة منا جميعاً بأن تشاد من أجلها المعاهد، وتعقد لها الحلقات، وتقام في سبيلها المناظرات، ويلفت إلى الاستفادة منها جمهور الشعب، ما دامت هي أخطر قضية في حياتنا العامة وأخلاقنا الاجتماعية.

يكاد يجمع علماء التربية في عصرنا الحاضر على أن التربية الناجحة التي تؤثر تأثيراً كبيراً في سعادة المجتمع وتماسك بنيانه هي التي تقوم على الدعائم التالية:

أولًا: تقوية شخصية الطفل بحيث يجد في جو البيت ما يُنمي مواهبه ويَصقُلها ويُعِدها للبناء والإفادة.

ثانياً: تنمية الجرأة الأدبية في نفس الطفل بحيث يعيش شجاعاً صريحاً جريئاً في آرائه، في حدود النظام والخير والأدب الإنساني الكريم.

ثالثاً: تقوية روح التعاون والحب في نفسه نحو إخوانه في المجتمع، حتى يكون من رواد التكافل الاجتماعي في كل ما يعود على الأمة بالقوة والكرامة والأمن والسلام.

تلك هي دعائم التربية الصحيحة في البيوت، وبمقدار ما تتوفر للناشئة على أوسع مدى، يكون وضع الأمة الاجتماعي والسياسي والديني والخلقي والاقتصادي سليماً متماسكاً يتعاون بعضه مع بعض على صيانة المجتمع من الضعف والانهيار.

لنكن صريحين جريئين في معالجة هذا الموضوع الخطير.. فهل تسلك بيوتنا السبيل الصحيح المؤدي إلى هذه التربية المثالية؟ وهل يقوم الآباء والأمهات بواجبهم نحو أولادهم في ميدان التربية والتوجيه السديد؟.. كلا.

إن أول ما يلاحظ على تربيتنا في البيوت، سوء فهم نفسية الطفل وتجاهل عواطفه، وعدم تقدير

المراحل التي لا بد من أن يمر بها حتى يصبح رجلاً تسري عليه قوانين الرجال. نحن نجهل أن عالم الأطفال غير عالم الكبار، ومن ثم فنحن نعاقبهم على الزلة بالقسوة أحياناً، وبالتشهير أحياناً، وبالازدراء والتحقير أحياناً أخرى.

أية أمّ لا تثور وتغضب إذا قضى طفلها الصغير حاجته في لباسه مرتين متتاليتين؟.. وأية أمّ لا تضرب ولدها إذا كسر آنية زجاجية في البيت أثناء لعبه؟ وأية أمّ لا تعاقب طفلها إذا كفأ الدواة على الأغطية النظيفة في غرفة الاستقبال؟... أكثر الأمهات عندنا يفعلن ذلك، ولقد حاولت مرة أن أقنع أمّاً تضرب ولداً لها لا يجاوز عمره سنة ونصف السنة؛ لأنه قضى حاجته في لباسه، وكان عليه في رأيها أن يخبرها قبل أن يقضي حاجته أو أن يذهب بنفسه إلى دورة المياه! حاولت أن أقنعها بخطأ ما تفعل، وأن الطفل في مثل هذه السن لا ينتظر منه أن يكون له ذلك الإدراك، فأبت أن تقتنع حتى قلت لها: اسألي أمك ألم تكوني تفعلين مثل ما يفعل ولدك الآن حين كنت في مثل عمره؟ فتضاحكت

وأدركت خطأها حين تجاهلت قوانين الطفولة ومدى إدراك الأطفال نتيجة ما يعملون.

ومن مظاهر هذه التربية الخاطئة: أن تلجأ إلى ضرب الأطفال حين يهربون من البيت مثلاً أو يتأخرون في العودة إليه، أو يعتدون على أخواتهم اللائي دونهن في العمر، أو يظهرون بعض التمرد على أوامرنا كأنهم جنود يجب أن يخضعوا لكل ما نريد... إن مخالفة الطفل لأوامر أبويه أو للأنظمة السائدة في عالم الكبار، ليست دائماً عنوان خبث الطفل وتمكن الشر من نفسه، فقد تكون ـ وهذا هو الغالب في الأطفال ـ مظهر حيوية ونشاط وقوة شخصية ما أحرانا أن نتعهدها بالرعاية والتقويم الهادىء حتى لا نقضي على معالمها في نفسه قبل أن يصبح رجلاً، وفي هذا يقول عليه الصلاة والسلام: «**عُرام الصبي نجابة**» أي طيشه وحيويته. وفي رواية «**عُرامة الصبي في صغره زيادة في عقله في كبره**»[1]. وكثيراً ما تكون للطفل أعذاره التي لا نعلمها حين يخالف النظام أو يهرب من المدرسة أو يتأخر عن

---

(١) رواه الترمذي الحكيم في نوادره.

البيت، ولو استطاع أن يحسن الإبانة عن أعذاره بلغتنا نحن الكبار، لكنا نؤيده فيما ذهب إليه، ولو استطعنا نحن أن نفهم بلغته هو لكنا أول من يعذره..

ولنا في القصة التالية خير مثل يوضح لنا هذه الحقيقة: تأخر أحد الأولاد يوماً عن الحضور إلى البيت مساء في الموعد المعتاد، وخشيت الأم أن يعلم الأب بتأخر ولده فيوقع عليه القصاص الأليم، فما كان منها إلا أن وقفت في دهليز الدار المظلم تحمل عصا طويلة وقد اشتد بها الغضب حتى إذا قدم الولد انهالت بالعصا ضرباً على رأسه دون أن تنتظر ما قد يبدي لها من عذر في تأخره.. وتبين بعد ذلك أن الأم كانت متسرعة في عقوبة ولدها.. فقد دعاه أحد جيرانه من الفلاحين ليعاونه في قطف الثمار لقاء أجرة يأخذها، فقبل الولد رجاء أن يقدم هذه الأجرة هدية منه لأبويه الفقيرين، وتنازل عن وجبة عشائه التي يأكلها في البيت عادة ليقدم لوالديه هذا العون البسيط.. أفلا ترون مثل هذه الأم كانت قاسية في معاملة ولدها الذي لم يتأخر إلا بدافع نبيل يستحق أن تشكره عليه بدلاً من الضرب والتأنيب؟.

ومن مظاهر هذه التربية الخاطئة أيضاً: أن نشهر بالولد حين ينحرف أول مرة عن سنن الأخلاق الكريمة، فإذا كذب مرة ناديناه دائماً بالكذاب، وإذا لطم أخاه الصغير مرة واحدة ناديناه بالشرير، وإذا احتال على أخته الصغيرة فأخذ منها تفاحة كانت بيدها ناديناه بالمحتال، وإذا سرق من جيب أبيه قلماً ناديناه بالسارق، وإذا طلبنا منه كأس ماء للشرب فأبى ناديناه بالكسول، وهكذا نشهر به أمام إخوته وأهله من الزلة الأولى، وهذا أقبح أسلوب في التأديب، وخير من ذلك أن ننبهه برفق ونبين له بالحجة التي يقتنع بها عقله الصغير أنه بذلك يسيء إلى نفسه وإلى غيره في هذا الانحراف.

وثاني ما يلاحظ على أسلوبنا في التربية: تخويف الأطفال حين يبكون ليسكتوا.. نخوفهم بالغول والبعبع والضبع والحرامي واليهودي والجني والعفريت، ونضمهم إلى صدورنا حين نذكر هذه الأسماء كأننا ننقذهم منها، وأسوأ أنواع التخويف أن نخوفهم بالأستاذ أو الطبيب أو المعلمة أو المدرسة، فينشأ الولد جباناً رعديداً يخاف مما لا يخاف منه،

ويخشى ما ينبغي أن يقدم عليه، وأشد ما يغرس الخوف والجبن في نفس الطفل: أن نجزع إذا وقع على الأرض فسال الدم من وجهه وركبته أو يده، فتلطم الأم صدرها بيدها وتصرخ وتطلب النجدة فيزداد الطفل بذلك بكاء، ويتعوّد الخوف من رؤية الدم أو الشعور بالألم. وخير من هذا أن تبتسم الأم وتهدىء روع ولدها وتشعره بأن ما حصل له أمر بسيط وأنه معرض لمثل هذا فيما يستقبل من الأيام.

وثالث الملاحظات الرئيسية على تربيتنا: أننا في الوقت الذي نود فيه استقامة أخلاق أبنائنا وبناتنا، نحيطهم بكل ما يؤدي بهم إلى الانحراف، فنسمح لهم برفقاء السوء، وندفع بهم إلى بعض المدارس الأجنبية التي لا تقيم للقيم الأخلاقية المعهودة في شريعتنا وعاداتنا وزناً، ونأخذهم بأيدينا إلى السينما ليشهدوا الأفلام الغرامية أو البوليسية، وهي تفسد أخلاق الكبار فكيف بالصغار، ونضع بين أيديهم المجلات الماجنة التي تتجر بالغرائز وتشجع على الإجرام، وتتسابق إلى نشر أسرار العائلات، أو مخازي البيئات (الفنية) السيئة في سلوكها وأخلاقها.

هذا هو الجو الذي نحيط به أولادنا ثم نطمع منهم أن يكونوا مثلاً أعلى في العفة والأمانة والاستقامة! ومما لا يختلف فيه أحد من علماء التربية أن لمثل هذه الأجواء أثراً بالغاً في نفوس الأطفال والمراهقين بحيث لا ينفع معه نصح الآباء أو توجيه المعلمين.

تلك هي أهم ما يلاحظ على أسلوبنا في التربية البيتية بقدر ما يتسع له وقت هذا الحديث.. ومنها نعلم أية جناية نجنيها على أبنائنا وبناتنا حين نقذف بهم إلى الحياة في جو هذه التربية الخاطئة. وما أسرعنا إلى الشكوى منهم حين نراهم منحرفين أو عاقين أو متمردين، وقد غرسنا بأيدينا في نفوسهم وهم صغار بذور هذا الانحراف أو العقوق أو التمرد.. جاء رجل إلى عمر بن الخطاب يشكو إليه عقوق ابنه، فأحضر عمر الولد وأنّبه على عقوقه لأبيه ونسيانه لحقوقه عليه، فقال الولد: يا أمير المؤمنين أليس للولد حقوق على أبيه؟ قال: بلى، قال: فما هي يا أمير المؤمنين؟ قال عمر: أن ينتقي أمه، ويحسن اسمه، ويعلمه الكتاب (أي القرآن)، قال الولد: يا أمير المؤمنين إن أبي لم يفعل شيئاً من

ذلك، أما أمي فإنها زنجية كانت لمجوسي.. وقد سماني جُعَلاً (أي خنفساء)، ولم يعلمني من الكتاب حرفاً واحداً. فالتفت عمر إلى الرجل وقال له: جئت إلي تشكو عقوق ابنك وقد عققته قبل أن يعقك، وأسأت إليه قبل أن يسيء إليك؟ يرحم الله عمر ما أشد توفيقه في جعل الأب حين أهمل تربية ابنه هو المسؤول عن عقوق ولده له!.

ويعجبني في هذا المقام جواب ولد لأبيه حين غضب عليه أبوه يوماً فعيّره بأمه فقال له: أتخالفني وأنت ابن أمة (جارية)؟ فقال الولد لأبيه: إن أمي والله خير منك يا أبي، قال: لم؟ قال الولد: لأنها أحسنت الاختيار فولدتني من حر، وأنت أسأت الاختيار فولدتني من أمة.. وهكذا يحمل الآباء مسؤولية انحراف أبنائهم منذ يختارون زوجاتهم، كما تحمل الأمهات مثل هذه المسؤولية منذ يخترن أزواجهن وصلى الله على من علّمه الوحي ما وصلت إليه مبادىء التربية بعد أربعة عشر قرناً، حين قال: **«تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس»**(1).

---

(1) رواه ابن ماجه والديلمي في الفردوس.

أيها الآباء والأمهات!

نحن المسؤولون عن انحراف أبنائنا وبناتنا إذا أصررنا على انتهاج الأساليب الحاضرة في بيوتنا مع أولادنا! نحن المسؤولون عن كذبهم في المجتمع إذا شجعناهم على الكذب في طفولتهم أو قسونا عليهم في العقوبة عليه حتى جعلناهم لا يخجلون منه، ونحن المسؤولون عن سرقاتهم إذا نحن ابتسمنا لسرقاتهم في طفولتهم، أو عاقبناهم بالعقوبة البالغة التي لا يطيقونها فندفعهم إلى التمرد والشقاوة دفعاً.

ونحن المسؤولون عن جبنهم وخوفهم من الحروب والطيارات والكفاح الدامي في سبيل حرية البلاد واستقلالها، إذا جزعنا عليهم وهم في صغرهم من خمشة اليد وعثرة الرجل ونقطة الدم ووحشة الظلام، ونحن المسؤولون عن ضعف أجسامهم إذا حفظناهم في صغرهم من لفح الشمس ووقذة البرد وثلج الشتاء ونسيم الربيع.

حكمت إحدى المحاكم على سارق بالعقوبة ـ وكان حكم الله في كتابه بقطع يده ـ فلما جاء وقت التنفيذ قال لهم بأعلى صوته: قبل أن تقطعوا يدي اقطعوا لسان

أمي. . فقد سرقت أول مرة في حياتي بيضة من جيراننا فلم تؤنبني ولم تطلب إلي إرجاعها إلى الجيران بل زغردت وقالت: الحمد لله لقد أصبح ابني رجلاً. فلولا لسان أمي الذي زغرد للجريمة لما كنت في المجتمع سارقاً!

أيها الآباء والأمهات! لنذكر دائماً مسؤوليتنا نحو أبنائنا وبناتنا، لنذكر قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾[1]. وقوله عليه الصلاة والسلام: «**علِّموا أنفسكم وأهليكم الخير وأدبوهم**»[2]. وقوله أيضاً: «**الزموا أولادكم وأحسنوا أدبهم**»[3].

ولنذكر أن أسماء بنت أبي بكر قالت لابنها عبدالله بن الزبير قبل استشهاده في معركته مع الحجاج وقد جاء يستشيرها في مواصلة المعركة: «يا بني إن كنت تعلم أنك على حق فما ينبغي أن ترجع عنه، وإن قلت: كنت على حق ثم تبين لي خلافه فبئس

(١) سورة التحريم، الآية: ٦.
(٢) أخرجه عبدالرزاق وسعيد بن منصور وغيرهما.
(٣) رواه ابن ماجه.

المرء أنت، أهلكت نفسك، وأهلكت قومك». ولما قال لها: أخشى أن يُمثل بي صبيان بني أمية بعد الموت.. فقالت له: يا بني إن الشاة المذبوحة لا تتألم من السلخ!

هذا مثل للبنت التي رباها الإسلام بأسلوبه الحكيم العظيم. فلما أصبحت أمّاً علّمت ابنها كيف يضرب أروع الأمثال في الفداء والتضحية والاستشهاد في سبيل الحق!

لنذكر هذا حين نحاول أن نعرف سر الخلود في تاريخ عظمائنا الخالدين، وسر الإخفاق في تاريخ رجالنا المعاصرين!.

❁ ❁ ❁

آباؤنا في البيوت

من مشاكل الأسرة التي تؤثر في سلوكنا الاجتماعي علاقة الأبناء بالآباء والأمهات، فكثيراً ما يقع الخلاف بين الولد وأبيه، وكثيراً ما يجر هذا الخلاف وراءه ذيولاً أخلاقية واجتماعية مؤلمة، وقد تؤدي إلى ارتكاب جرائم القتل والعدوان، ونستطيع أن نقسم أسباب الخلاف إلى سببين رئيسيين: سبب معقول لا بد فيه من استعمال الحكمة، وسبب غير معقول ولا مشروع وهو ما يتسم بسِمة العقوق من قبل الولد نحو أبيه.

أما الأول: فهو ما ينشأ عن تحكم الأبوين في علاقة ولدهما بهما بعد الزواج أو عنده. فهما يحرصان غالباً على زواج ولدهما بفتاة لا يريدها، أو ليست له مصلحة حقيقية في الزواج منها، بل إنهما ليرغبان في ذلك طمعاً في مال، أو انسياقاً وراء

عاطفة، أو حرصاً على صداقة أو قرابة، دون نظر إلى مصلحة الولد الحقيقية في هذا الزواج، وهذا خطأ فادح يجر إلى أسوأ العواقب، وهو تحكم من الأب أو الأم لا يبرره الشرع ولا العقل ولا الحكمة، ومن الخير أن يؤخذ في ذلك رأي الابن ويقتنع به؛ لأنه هو الذي سيتزوج الفتاة ويشترك معها في السراء والضراء، فإذا لم يجد فيها سكنه النفسي والروحي كان زواجه منها مبعث شقاء له ولها، وقد يتعدى ذلك إلى شقاء أسرتيهما معاً.

وحين يتزوج الولد يرغب الأبوان (غالباً) في أن يظل بجانبهما، يسكن معهما هو وزوجه وأطفاله فتنشأ المشاكل بين الأم والزوجة، وبين الأب والابن، وكثيراً ما تكون أسباب المشاكل تافهة ناشئة عن رغبة الأب أو الأم في فرض سلطانهما على الولد بعد زواجه، كما اعتادا ذلك أيام طفولته وعزوبته، وقد تنشأ عن غطرسة الزوجة أو نفرتها من حماتها، أو تدخل الأبوين في العلاقة بينها وبين زوجها، وفي البيئات الجاهلة أو الظالمة يحمل الأبوان ولدهما على القسوة على زوجته وتعذيبها، وأحياناً على الطلاق

منها؛ لأنها لا تخضع لهما أو لا تنسجم معهما، وعادة إسكان الولد مع أبويه بعد الزواج لا تزال منتشرة في القرى وفي أكثر سكان المدن، وهي عادة قديمة نرى آثارها في البيوت القديمة التي كانت تعد لإسكان الأولاد حين زواجهم مهما كان عددهم في البيت الواحد، وكان الأب حين يريد تزويج ابنه يكتفي بأن يفرد له في الدار غرفة واحدة لسكنه وزوجته، بينما يشترك مع أبويه وإخوته في غرف الأكل والجلوس والاستقبال، وقد رأينا عدة أبناء يشتركون مع أبويهم في بيت واحد، ويتكاثر الأولاد في هذا البيت حتى يشبه خلية من النحل تعج بالأطفال والنساء والرجال.

ولهذه العادة محاذير متعددة من جهة الشرع والأخلاق والصحة النفسية والجسمية، والآن وقد تطورت الحياة وتعددت مشكلاتها ومطاليبها، وتطور بناء البيوت من الأسلوب الإسلامي الشرقي إلى الأسلوب الغربي الحديث، لم يعد من المستحسن أن يستمسك الأبوان بهذه العادة، ومن الخير لهما ولولديهما أن يهيئا بأنفسهما له سكناً خاصّاً خارج بيتهما، لتظل علاقات الود والحب والاحترام قائمة

بينهما وبين ولدهما وزوجه، فيحال دون وقوع المشكلات وتجددها يوماً بعد يوم في البيت الواحد والعائلة الواحدة.

والقسم الثاني من أسباب الخلاف: هو ما يكون منشأه العقوق والجحود، عقوق الولد لأبويه وجحوده لفضلهما، ويتجلى ذلك في تأففه من أوامرهما وتكاليفهما، ومن رقابتهما لسلوكه ونصحهما له في أعماله، كما يتجلى عقوق الولد في انشغاله بنفسه وعائلته عن النظر في شؤون والديه وإعالتهما حين يحتاجان إلى إعانته وإنفاقه، وقد يتطور هذا العقوق إلى الغلظة في خطابهما والتعدي عليهما بالضرب والإهانة، وكم رأينا أبناء مجرمين اعتدوا على حياة آبائهم وأمهاتهم بالقتل أو الضرب المبرح الذي تنشأ عنه إحدى العاهات المزمنة.

ومن أقبح مظاهر العقوق: أن يتبرأ الولد من أبويه حين يرتفع مستواه الاجتماعي عنهما، كأن يكونا فلاحين وهو يعيش في المدن ويشغل بعض الوظائف الكبيرة، فيخجل من وجودهما في بيته بثياب الفلاحين أو الأزياء القديمة، وقد شاهدنا بعض هؤلاء العاقين المغرورين من زعم لزواره عن أبيه أنه خادم مستأجر

لشؤون البيت، لما يتوهم في لباسه وهيأته من حطة تتنافى مع وظيفته أو مقامه الاجتماعي الكبير» وهذا بلا ريب دليل على حطة نفس، وصغر عقل، وحقارة شأن، والنفس العظيمة تعتز بمنبتها وأصلها وتفخر بأبيها وأمها مهما كانت حياتهما ونشأتهما وبيئتهما، وحسبك أن القرآن الكريم مع تشديده على الشرك والمشركين أوصى الولد بأن يعاشر والديه المشركين بالمعروف: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾[1].

هذه هي بعض مظاهر العقوق من الولد نحو أبيه وأمه، ومن ثم كان العقوق قبيحاً في نظر المروءة والشريعة.

أما قبحه في نظر المروءة: فلأنه مكافأة لإحسان الأبوين بالإساءة ولنعمتهما بالكفران، فلو عرف الولد مبلغ ما عاناه أبواه منذ أن حملته أمه إلى أن وضعته وأرضعته وربته، ومنذ أن أنفق الأب عليه جنيناً في بطن أمه حتى أصبح رجلاً ذا زوج وأولاد، لو تذكر

---

(١) سورة لقمان، الآية: ١٥.

الولد فضل أبويه وكفاحهما من أجله في مراحل حياته منذ الاجتنان حتى الزواج، لوجد أن ما يقدمه لهما بعد ذلك من بر وعَون في حياته كلها لا يعادل فضل يوم واحد من أيام أبويه معه، فكيف يكون من المروءة أن يجحد فضلهما ويبدلهما بالإحسان إساءة وبالشكر كفراناً؟.. ولو كان فضل الأبوين قاصراً على الإنفاق المادي لهان الأمر، ولكن فضلهما في حياطته بالعاطفة والحب والرعاية والسهر هو أقوى وأشد تأثيراً في حياته وهو طفل صغير، إن الطفل يعيش بعاطفة أبويه وحنانهما أكثر مما يعيش بمالهما، ويا للّه للأبوين! ما أكبر قلبيهما، وأنبل عاطفتيهما، حين يسهران الليل كله لطفلهما الوليد يصرخ ويبكي، فلا يذوق الأبوان طعم المنام ولا برد الاستقرار، يكبان عليه ساهرين جزعين وجلين على حياته وصحته، حتى ليتمنيان أن يفدياه بحياتيهما، فإذا بزغ الفجر وهدأ الألم وعاودت الطفل ابتسامته، نسيا سهرهما وآلامهما وأكبّا عليه يقبلانه ويضمانه.. إن ليلة واحدة من هذه الليالي - وما أكثرها في حياة الطفل - في آلامها وأحزانها وتعبها وسهرها، لتعدل مال الدنيا يصبه الولد حين

يكبر بين قدميهما ثم لا يكفي ذلك في جزائهما ولا شكرانهما.

جاء رجل إلى النبي ﷺ وقال له: يا رسول الله، إنني حججت بأمي من اليمن على ظهري، وطفت بها البيت، وسعيت بها بين الصفا والمروة، ووقفت بها في عرفات، ودلفت بها إلى المزدلفة، ورميت لها الجمار بمنى، فعلت ذلك كله وهي عجوز لا حراك بها وأنا أحملها على ظهري، فهل أديت حقها علي؟ فقال له ﷺ: **«لا»**، قال الرجل: لـمَ؟ قال: **«لأنها فعلت ما فعلت بك في صغرك وهي تتمنى حياتك، وأنت فعلت ما فعلت بها وأنت تتمنّى موتها؟»**. وصدق رسول الله ﷺ، فما يطيق الولد مهما كان برّاً وفيّاً، بعض ما كان يطيق الأب من عذاب وآلام نحو ولده الصغير حين تتنابه الأوجاع والأسقام.

أفليس قبيحاً إذن في عرف المروءة والأخلاق أن يقف الولد من أبويه في كبره موقف الجحود وهو المدين لهما في حياته منذ ولادته وطفولته؟

ومن هنا كان حقّاً ما تقرره الشريعة من أن عقوق الوالدين من أكبر الكبائر وأشد الذنوب بعد الشرك

بالله عز وجل ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَـٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾[(١)].

فانظر كيف قرن النهي عن الشرك بالله مع الوصية بالوالدين ووجوب الشكر لله ولهما في آية واحدة ونسق واحد؟.. ويقول ﷺ: **«ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ الشرك بالله.. وعقوق الوالدين»**[(٢)].

فلا يقدم على عقوق الوالدين إلا فاقد لمروءة سيىء الخلق قليل الدين، ومن كان كذلك مع أوثق الناس به وأكثرهم تفضلاً عليه، كان مع الناس أدنى مروءة وأسوأ خلقاً وأقل ديناً.

وقد يبرر بعض الأولاد عقوقهم لآبائهم وأمهاتهم بقسوة هؤلاء الآباء والأمهات، وظلمهما له وتعذيبهما عليه، وأنا لا أنكر أن بعض الآباء يفعلون ذلك، وأن بعضهم يشتد في القسوة والتأديب حتى ليضرب ولده

---

(١) سورة لقمان، الآيتان: ١٣، ١٤.

(٢) رواه البخاري ومسلم والترمذي.

فيكسر له يداً أو يقصم له ظهراً، وهي قسوة جاهلة ظالمة بلا شك، لكنها لا تبرر العقوق بحال، فالولد كثيراً ما يخطىء في الحكم على الأب والأم بالقسوة والظلم، وكثيراً ما تخفى عليه الحكمة ـ لصغره وطفولته ـ من قسوة أبويه وشدتهما عليه في التأديب، وكثيراً ما يكون ذلك بدافع الشفقة والرحمة من دون أن يرى الولد أن في ذلك شفقة أو رحمة، ولقد مررنا كلنا بهذا الدور وبهذه الحالة، فكم كنا نبكي من قسوة آبائنا علينا، ومن حرماننا من بعض ما نشتهي، ومن منعنا بعض ما نريد أن نفعل، وكنا نتهمهم يومئذ بالظلم والقسوة، ثم ما نلبث حين نعي الحياة ونفهمها أن نتبين فضلهما علينا في ذلك المنع والحرمان، وما أصدق الشاعر حين يقول:

فقسا ليزدجروا ومن يك راحماً

فَلْيَقْسُ أحياناً على من يرحم

وهب أن أباك كان ظالماً فيما صنع بك، ألا تغتفر له ذلك لقاء ما سبق له من فضل عليك يوم كنت رضيعاً ووليداً وطفلاً صغيراً لا تجد في الكون من يحنو عليك غيره وينفق عليك سواه؟

أيها الإخوة من أبناء وبنات! لا تنسوا فضل آبائكم وأمهاتكم عليكم وإن غاب عنكم الآن مشهدهم، انظروا إلى صنيعهم بإخوتكم الصغار، انظروا إلى أمهاتكم حين يلدن إخوتكم كم يتألمن وكم يصرخن، ثم انظروا إليهن بعد ذلك كم يسهرن وكم يأرقن وكم يجزعن، وانظروا إلى آبائكم كيف يكدحون في الحياة ويتعبون من أجل تربية إخوتكم الصغار وتعليمهم وتطبيبهم؟ وكونوا على ثقة أن الحياة جزاء ومكافأة، فمن أحسن منكم إلى أبويه وبرهما وحنى عليهما، رزقه الله أولاداً يحنون عليه ويبرونه ويحسنون إليه، ومن عقّ منكم أبويه عوقب بأولاد يعقونه وينكرونه ويسيئون إليه.. وقد قال ﷺ: **«بروا آباءكم تبركم أبناؤكم»**[1].

وهذه تجربة رأيناها بأعيننا في كثير من الآباء والأمهات، فانظروا كيف تريدون أن تكونوا حين تكبرون وتحتاجون إلى عون الولد ونصرته وبره ومساعدته.. ولست أجد في تذكيركم بحق الأبوة

(١) أخرجه الحاكم والطبراني.

والأمومة أبلغ ولا أروع من هذه الآيات الكريمة من كتاب الله العظيم فاستمعوا إليها واعملوا بها ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾[1].

❊ ❊ ❊

(١) سورة الإسراء، الآيتان: ٢٣، ٢٤.

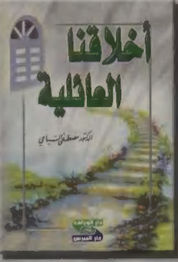

هذا الكتاب

هذا الكتاب هو عبارة عن حلقات إذاعية بثت بصوت الدكتور مصطفى السباعي، ونشرت ضمن أحد مصنفاته، ورأينا إفرادها في هذا الكتاب ليكون بمتناول أفراد عائلاتنا ليعطي صورة عن أخلاقنا الاجتماعية التي يجب أن يتحلى بها كل فرد من أفراد هذه العائلة.

الناشر